

موسوعة سفير
التاريخ الإسلامي

المسلمون في الأندلس

(٩٢ - ٨٩٧ هـ)



سفير

A:J
297.09
M462m
v.7
c.1

موسوعة سفير
للتاريخ الإسلامى

٨
٣
٢٩١٠٥
١٧٤٦٢
٨٧٧

تاريخ المسلمين فى الهند

[٩٣ - ٨٩٧ هـ]

إهداء من روح المرحوم الحاج
مفتي كبرى الهند

تأليف

أ.د. عبد الله جمال الدين

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة القاهرة

LAU - Riyadh Nassar Library

09 JUL 2008

RECEIVED

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لشركة سفير

٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة . ص.ب: (٤٢٥) الدقى

مقدمة الكتاب

يتناول هذا الجزء من «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» تاريخ المسلمين في «الأندلس» منذ الفتح حتى سقوط «غرناطة»، وهي فترة طويلة تمتد لأكثر من ثمانية قرون، شهدت «الأندلس» خلالها جهاداً مضطرباً بين العرب والإسبان، وصراعاً لا يهدأ بين الإسلام والمسيحية، وثورات لا تنقطع طلباً للملك والسلطان، ودولا تقوم ثم تسقط، ومحاولات دائبة من «إسبانيا» النصرانية لغزو الأراضي الإسلامية واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها حتى قضت على دولة الإسلام في «الأندلس» تماماً، بعد حضارة زاهرة لاتزال آثارها شاهدة على ما بلغته من رقي وازدهار.

وقد تعرض الكتاب للعصور التي مر بها الحكم الإسلامي في «الأندلس»، فتناول «عصر الولاة» الذي يمتد من الفتح إلى قيام الدولة الأموية على يد «عبد الرحمن الداخل» (٩١ - ١٣٨هـ)، وكانت «الأندلس» في هذه الفترة ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية في «دمشق»، تعاقب عليها عشرون ولياً، أولهم «عبد العزيز بن موسى» وآخرهم «يوسف ابن عبد الرحمن الفهري»، وقد بدأ المسلمون في هذا العصر يستقرون في البلاد، وينظمون شئونهم، وينشرون الإسلام الذي أقبل على اعتناقه سكان «الأندلس» الأصليون، ويمدون فتوحاتهم إلى خلف «جبال ألبرت».

ثم تلا ذلك «عصر الدولة الأموية»، وينقسم إلى فترتين:

الأولى : هي فترة الإمارة (١٣٨ - ٣١٦هـ)، وفيها كانت «الأندلس» إمارة مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية في المشرق وتداول الحكم فيها سبعة من أمراء البيت الأموي، وشهدت هذه الفترة نشأة الدويلات الإسبانية، وبدء ما يسمى بحركة الاسترداد في الشمال الإسباني.

والأخرى : هي فترة الخلافة الأندلسية (٣١٦ - ٤٢٢هـ)، وتعاقب على الحكم فيها عدد كبير من الخلفاء، يأتي في مقدمتهم «عبد الرحمن الناصر»، وهو أول من اتخذ لقب خليفة، وابنه «الحكم المستنصر بن عبد الرحمن»، ومنذ عهد الخليفة «هشام» صارت السلطة في يد حاسب الدولة «المنصور بن أبي عامر»، واستمرت في يد ولديه من بعده، وكوّن هؤلاء ما عرف بالدولة العامرية.

وتناول الكتاب «عصر ملوك الطوائف» الذي يبدأ بعد سقوط الدولة الأموية سنة (٤٢٢هـ)، وينتهي بدخول «المرابطين» «الأندلس» وانتصارهم على الإسبان في معركة «الزلاقة» سنة (٤٧٩هـ)، وفي هذا العصر توزع «الأندلس» بين ملوك الطوائف، فكانت «طليطلة» من نصيب «بنو ذى النون»، و«بطلوس» خاضعة لبنو الألفطس، وإشبيلية يحكمها «بنو عباد». وشهد هذا العصر سقوط «طليطلة» في أيدي الإسبان، وتناحر ملوك الطوائف فيما بينهم واستعانتهم بملوك النصراري ضد بعضهم، فكان ذلك إيذاناً بغروب دولتهم وبداية نهايتهم، وعلى الرغم من ذلك فقد ازدهرت الآداب والفنون، ونشطت حركة التأليف، وبرز عدد كبير من العلماء والفقهاء والشعراء.

ثم أصبحت «الأندلس» تابعة للمغرب في عهدي المرابطين والموحدين (٤٧٩ - ٦١٢هـ)، أو ما يسمى بعصر النفوذ المغربي، وقد انتهى هذا العصر عقب هزيمة جيوش الموحدين أمام القوات الأوربية المتحالفة في موقعة العقاب سنة (٦٠٩هـ)، وشهدت هذه الفترة سقوط «قرطبة» سنة (٦٣١هـ) وقبلها سقطت «جيان» و«إشبيلية» و«مرسية» و«بلنسية» في أقل من ربع قرن، وانحصرت دولة «الأندلس» في مملكة «غرناطة» التي صمدت لأكثر من قرنين من الزمان (٦٣٥ - ٨٩٧هـ) قبل أن تستسلم لأعدائها، معلنة انتهاء دولة الإسلام في «الأندلس»، وطاوية صفحة مجيدة من تاريخ الإسلام والمسلمين.

ويختتم الكتاب بالحديث عن المورسكيين وجهادهم وصمودهم أمام الإسبان حتى طردهم نهائياً من البلاد كلها سنة (١٠٢٣هـ).

الهيئة المشرفة :

أ.د. حسن محمود الشافعي

عضو مجمع اللغة العربية والأستاذ بجامعة القاهرة.

أ.د. حسن على حسن

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة.

أ.د. عبدالشافى محمد عبداللطيف

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر

أ.د. عبدالله جمال الدين

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة.

أ.د. محمد حرب

رئيس مركز بحوث العالم التركي

الإشراف على التنفيذ

عمر على الكومى عبد الحميد توفيق

المحرر العام

أحمد عبدالفتاح تمام

المراجعة اللغوية والتصحيح

زينهم البدوى حمدي بنورة

الإخراج الفني

ماهر عبدالقادر

رسوم

محمد طراوى محمد نادى

صفوت عبد الرازق إبراهيم الطهطاوى

عبد المرسى عبيد ماهر عبد القادر

عصام طه



رقم الإيداع ٨٠٣٥ / ١٩٩٦

الترقيم الدولى : 1 - 490 - 261 - 977 . I . S . B . N

الإنجليس

* الأندلس لمحة جغرافية :

تطلق كلمة الأندلس على الأجزاء التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) ، وظلت تطلق على ما في أيديهم حتى عندما انحصرو وجودهم في مدينة غرناطة وحدها.

وتعود كلمة «الأندلس» في أصولها إلى كلمة «الوندال» ، وهي تعنى مجموعة القبائل الجرمانية التي غزت أيبيريا» في القرن الخامس الميلادى ، وأقامت في طرفها الجنوبي الذى كان آنذاك باسم «أندلوسيا» ، فلما فتح المسلمون هذه المناطق قيل لهم : إن هذه أرض «وندلس» فحولها العرب إلى «أندلس» ، وبقيت الكلمة مستخدمة حتى نهاية الحكم الإسلامى .

ولانزال كلمة «أندلوسيا»
مستخدمة حتى اليوم في
«الإسبانية»، وتطلق على ثمانى
محافظات في جنوب إسبانيا ،
هى: المرية ، وغرناطة ، وجيان ،
وقرطبة ، ومالقة ، وقادش ،
وولية ، وإشبيلية .

وشبه الجزيرة الأيبيرية مخمسة الشكل ، تصل مساحتها إلى ٦٠٠ ألف كيلو متر مربع ، تحتل إسبانيا (٥/٦) من هذه المساحة ، وهي هضبة متوسطة الارتفاع ، بها سلاسل جبلية كثيرة تشقها بالعرض، ويفصل بين كل سلسلة



جبلية وأخرى وادٍ يجرى فيه نهر
بالعرض أيضًا ، وتنبع معظم هذه
الأنهار من وسط شبه الجزيرة ،
وتصب في المحيط الأطلسي .

أ - الثغر الأعلى ؛ وعاصمته
سرقسطة ويواجه مملكة نبرة .

ب - الثغر الأوسط وعاصمته
مدينة «سالم» ثم «طليطلة» ،
ويواجه مملكتي قشتالة وليون .

ج - الثغر الأدنى ، بين نهري
«دويرة» و«تاجة» وعاصمته طليطلة
وجدت في الأندلس ثلاثة ثغور
ثم قورية .

* الثغور الإسلامية :

وجدت في الأندلس ثلاثة ثغور



وقد تمكن النصارى فى نحو القرن الرابع الهجرى من إقامة ثلاث دويلات نصرانية ، هى :

أ - ليون فى الشمال والشمال الغربى ، وعاصمتها مدينة «ليون» ، وتضم مملكتى «جليقية» و«أشتوريس» .

ب - نبرة ، فى الشمال والشمال الشرقى ؛ حيث تعيش قبائل البشكنس ، وعاصمتها «بنبلونة» .

ج - قشتالة ، وتقع بين مملكتى ليون ونبرة ، وعاصمتها «برغش» . ومن هذه الدويلات الثلاث ستبدأ حركة المقاومة ضد الوجود الإسلامى فى الأندلس .

* عهود الحكم الإسلامى بالأندلس :

ظل المسلمون يحكمون الأندلس نحو ثمانية قرون منذ تم فتحها سنة



جبل طارق

أولاً : عهد الفتح (٩٢ - ٩٥هـ = ٧١١ - ٧١٤م) .

ثانياً : عهد الولاة (٩٥ - ١٣٨هـ = ٧١٤ - ٧٥٥م) .

ثالثاً : عهد الإمارة (١٣٨ - ٣١٦هـ = ٧٥٥ - ٩٢٨م) .

رابعاً : عهد الخلافة (٣١٦ - ٤٠٠هـ = ٩٢٨ - ١٠٠٩م) .

خامساً : عهد ملوك الطوائف (٤٠٠ - ٤٨٤هـ = ١٠٠٩ - ١٠٩١م) .

سادساً : عهد المرابطين (٤٨٤ - ٤٩٢هـ = ١٠٩١ - ١١٧٢م) .

سابعاً : مملكة غرناطة (٦٢٠ - ٨٩٧هـ = ١٢٢٣ - ١٤٩٢م) .

أولاً: الفتح الإسلامى للأندلس

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية خاضعة لحكم القوط قبل الفتح الإسلامى ، ويتولى أمرها ملك ظالم يدعى رودريك «لذريق» فأبغضه الناس وفكروا فى الثورة عليه وإبعاده عن الحكم بالاستعانة بالمسلمين الذين دانت لهم بلاد الشمال الإفريقى ، فقام بهذه الوساطة حاكم «سبته» الكونت يوليان ، واتصل بطارق بن زياد ، قائد القوات الإسلامية المعسكرة عند مدينة «طنجة» بالمغرب الأقصى والقريبة من مدينة «سبته» .

وأقبلت الوفود على «طارق» تدعوه لعبور المضيق والوصول إلى شبه الجزيرة ، وتصور هؤلاء أن المسلمين سيتزلون ضربة قاصمة بالقوط ثم يعودون إلى بلاد المغرب محملين بالغنائم ، وغاب عنهم أن المسلمين حملة رسالة سامية ، وأنهم مكلفون بتبليغها لكل الناس ، وأن ما يشغلهم قبل كل شئ هو نشر مبادئ دينهم السمحة وتعريف الشعوب به . وقد رحّب «طارق» بهذا الطلب ووجد فيه فرصة طيبة لمواصلة الفتح والجهاد ، وأرسل إلى «موسى بن نصير» والى الأمويين على المغرب يستأذنه فى فتح

أول الأمر ، خوفاً على المسلمين من المخاطرة بهم فى بلاد لا عهد لهم بها من قبل ، لكن «موسى» نجح فى إقناعه بأهمية الفتح ، وتم الاتفاق على أن يسبق الفتح حملات استطلاعية .

وفى سنة (٩١هـ = ٧١٠م) أرسل «طارق بن زياد» بعثة استطلاعية بقيادة «طريف بن زرعة» فنزلت فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ، ولم تلق مقاومة ، وعادت بغنائم وفيرة ، ومنذ ذلك الحين أطلق اسم «طريف» على إحدى تلك المناطق .

وقد شجعت نتيجة حملة «طريف» «طارق بن زياد» فعبر المحيط فى (شعبان ٩٢هـ = إبريل-مايو ٧١١م) ، وتجمع المسلمون عند الجبل الذى يعرف من ذلك التاريخ بجبل طارق ، وأقام «طارق» بتلك المنطقة عدة أيام ، بنى خلالها سوراً أحاط بجيوشه سمّاه «سور العرب» ، كما أقام قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل ؛ لحماية ظهره فى حالة اضطرابه إلى الانسحاب ، هى مدينة الجزيرة الخضراء ، أو جزيرة «أم حكيم» ، نسبة إلى جارية كان طارق قد حملها معه ، ثم تركها فى هذا المكان ، وهذا الميناء سهل اتصاله بميناء «سبته» المغربى ، على حين يصعب اتصاله بإسبانيا لوجود مرتفعات بينهما ، ولم يكن طارق بذلك ، بل أقام



قاعدة أمامية أخرى وبني حصناً ، وطلب من «يوليان» ومن معه من الجند حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم منتظر .

ثم واصل «طارق» السير جنوباً حتى بلغ الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة ، ومشى في محاذاته ، وعبر نهراً صغيراً يسمى «وادي لكه» ، وأقام معسكره في منطقة واسعة يحدها من الشرق «وادي لكه» ، ومن الغرب «وادي البرباط» ، وهي منطقة سهلية واسعة تكثر فيها المدن ، مثل : «قادش» على البحر ، وإلى جوارها من الداخل مدينة «شريس» ، وفي الشمال على الطريق إلى «قرطبة» مدينة شذونة (سيدونيا) ، وفي ذلك السهل الواسع أخذ «طارق» ينظم قواته ويرتب لمركته انتظاراً للقاء القوط .

«شذونة» وأتم بها استعداداته ، ثم اتجه للقاء المسلمين ودارت بين الفريقين معركة فاصلة في كورة «شذونة» جنوب غربي إسبانيا ، استمرت ثمانية أيام من (الأحد ٢٨ من رمضان إلى الأحد ٥ من شوال سنة ٩٢هـ = ١٩ - ٢٦ يوليو ٧١١م) ، وكانت معركة هائلة ، اقتتل فيها الطرفان اقتتالا شديداً حتى ظنوا أنه الفناء ، وكان النصر في النهاية حليف المسلمين ، وفر «لذريق» من أرض المعركة ، وتبعه المسلمون حتى أدركوه وقتلوه بالقرب من بلدة «لورقة» . وبعد هذا النصر العظيم الذي حققه «طارق بن زياد» ، وامتلاء أيدي أصحابه بالغنائم - اتجه إلى الشمال فاستولى على بعض

علم «لذريق» بمجيء القوات الإسلامية ، وهو مشغول بمحاربة أعدائه في شمالي شبه الجزيرة ، فأصيب بهلع ورعب عظيمين ، وجمع جنوده وانحدر بهم لمواجهة المسلمين ، ووصلت أنباء تلك الحشود الضخمة إلى «طارق بن زياد» ، فكتب إلى «موسى بن نصير» يخبره بذلك ، فأمدّه بخمسة آلاف جندي صار بهم مجموع جنود المسلمين بالأندلس (١٢) ألف جندي .

وصل «لذريق» إلى بلدة

القلاع ، ثم عبر نهر الوادي الكبير قاصداً مدينة «طليطلة» عاصمة «القوط» ، وكانت تبعد عن أرض المعركة بنحو ستمائة كيلومتر ، وكلها جبال ووديان ومضايق عسيرة ، وقد تمكن المسلمون بعزيمتهم وإصرارهم وإيمانهم الجياش من دخول العاصمة بعد مقاومة عنيفة من القوط .

وفي أثناء سير «طارق» إلى «طليطلة» أرسل جزءاً من قواته لفتح «البيرة» كما أرسل «مغيث الرومي» إلى «قرطبة» ففتحها بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، وكانت آنئذ معسكراً رومانيا قديماً يقع على ضفة نهر الوادي الكبير وعندها بُنيت قنطرة حجرية على النهر . وأثبت «طارق» بهذا التصرف أنه



على خبرة واسعة بشئون الحرب وفنون القتال ، لأن السيطرة على هذه القنطرة تيسّر له طريق العود .

استقر «طارق بن زياد» في «طليطلة» ، فهرب منها كبار «القوط» وكبار رجال الدين الذين حملوا معهم ذخائر كنيستهم ، فأدرك المسلمون هؤلاء الفارين عند بلدة صغيرة تسمى قلعة «عبدالسلام» ، وغنموا ما كان معهم من ذخائر بالغة القيمة ، وتجل عن الحصر ، من بينها مذهب الكنيسة الذي سموه «مائدة سليمان» - ولاصلة لنبي الله سليمان بهذه المائدة - التي كانت من الزبرجد الخالص ، ومزدانة بالجوهر ، وتوضع في صدر الكنيسة وعليها الصلبان والكؤوس والكتب المقدسة ، وبعد أن حل الشتاء أثر «طارق» العودة إلى «طليطلة» ، وكتب إلى «موسى» يحيطه بأنباء الفتح وما أحرزه من نجاح ، ويطلب منه المدد .

* موسى بن نصير ، والمشاركة في فتح الأندلس :

قرر «موسى بن نصير» التوجه إلى الأندلس على رأس قوات مقدارها ثمانية عشر ألفاً معظمهم من العرب - على حين كان معظم جند طارق من البربر - فغادر القيروان ، ووصل إلى «طنجة» سنة (٩٣هـ = ٧١٢م) ، ثم عبر المضيق ونزل الجزيرة الخضراء .



أثر مدينة سرقسطة - قصر الجعفرية - محراب المسجد

وفي تلك الأثناء عاد «مغيث الرومي» من «دمشق» وطلب من «موسى» أن يذهب إلى عاصمة الخلافة ومعه «طارق بن زياد» ليقدما بيانًا شافيًا عن فتوحاتهما ، فاستجاب «موسى» للطلب ، ولكنه عزم على إرجائه حتى يتم فتح الشمال الغربى والشرقى لشبه الجزيرة الإيبيرية ، وأمر طارق فواصل السير مع الطريق القيصرى ، على حين سار هو فى اتجاه الشمال الغربى ، حتى وصل إلى خليج بسكاي عند «خيخون» . وقد نجح «طارق» فى إخضاع منطقة «أراجون» ، ثم اتجه غربًا ليلحق بموسى ، فاستولى على

استقر «موسى بن نصير» فى «طليطلة» فى شتاء سنة ٩٥هـ = ٧١٤م) ، وبدأ فى ممارسة عمله ، باعتباره أول مسلم يحكم قطرًا أوريبيا ، فأمر بضرب عملة إسلامية ، مكتوب على أحد وجهيها باللاتينية «شهادة أن لا إله إلا الله» ، وعلى الوجه الآخر «ضربت فى إسبانيا سنة (٧١٤م)» ، ثم أرسل رسولين هما «على بن رباح اللخمى» ، و«مغيث الرومى» إلى الخليفة «الوليد بن عبد الملك» يحملان إليه نبأ الفتح العظيم ، وطرقًا من الذخائر والتحف التى غنمها المسلمون .

سار «موسى بن نصير» بجنوده فى غير الطريق الذى سلكه «طارق ابن زياد» ، بناءً على نصيحة رجاله وحلفاء المسلمين ؛ ليكون له شرف فتح بلاد أخرى غير التى فتحتها طارق ، فزل «شدونة» ، واستولى على حصنين كبيرين بجوارها ، هما «قرمونة» وقلعة «وادي إبرة» ، ثم تقدم نحو «إشبيلية» فحاصرها حتى استسلمت وانسحبت حاميتها إلى مدينة «لبلة» فى الغرب ، وهى الآن مدينة برتغالية .

ثم اتجه «موسى» ناحية بلد كبير يحيط به سور حصين ، تسمى «ماردة» كان يعتصم به قسم كبير من جيش «الزريق» ، فحاصرها واشتد فى حصارها على الرغم مما كابده المسلمون من خسائر ، حتى استسلمت صلحًا فى (أول شوال سنة ٩٤هـ = ٣٠ من يونيو ٧١٣م) ، وغنم المسلمون ما كان بها من ذخائر نفيسة .

وبعد شهر تقدم «موسى» نحو «طليطلة» حيث التقى بطارق عند نهر «التاجو» ، ثم سارا معًا لمواصلة الفتح ، وفى أثناء ذلك حدثت ثورة معادية للمسلمين فى «إشبيلية» ، فأرسل «موسى» ابنه «عبد العزيز» ففضى على تلك الثورة وفتح مدن: «لبلة» و«باجة» و«أكشونية» وهى تكون النصف الجنوبى من البرتغال الآن ، ثم وصل المسلمون إلى ساحل المحيط الأطلسى من تلك الناحية .



الحكومة ، واتخذ «إشبيلية» عاصمة؛ لموقعها وقربها من البحر ، ثم أسرعا السير نحو العاصمة «دمشق» فوصلاها بعد تولية «سليمان بن عبد الملك» الخلافة ، خلفًا لأخيه «الوليد» ، وظلا هناك ولم يعودا لمواصلة الفتح .

وكان «موسى بن نصير» قد ترك ابنه «عبد العزيز» واليًا على الأندلس ، ففضى أيام ولايته فى استكمال فتح شبه الجزيرة

بعض الحصون ، وعلى مدينتى «اشترقة» و«ليون» ، وبهذه الإنجازات التى حققها القائدان شعرا أنهما أتما فتح شبه الجزيرة ، وأن بإمكانهما الآن تلبية دعوة الخليفة «الوليد» وبخاصة أنه قد بعث برسول يتعجل عودتهما .

أخذ الفاتحان العظيمان طريق العودة إلى المشرق فى (ذى القعدة ٩٥هـ = يوليو ٧١٤م) بعدما نظما شئون البلاد ، ورسمًا سياسة

عهد الولاة

٩٧ - ١٣٨ هـ = ٧١٥ - ٧٥٥ م

يقصد بالولاة حكام الأندلس الذين عيّنهم الحكومة الأموية في دمشق ، أو والى الشمال الإفريقي الذى كانت الأندلس تابعة له أحياناً ، وقد تولى على الأندلس خلال هذه الفترة (٢٢) والياً ، حكم اثنان منهم مرتين ، وهذا يعنى

* السّمع بن مالك الخولاني :

كانت «الأندلس» تابعة لإفريقية من الناحية الإدارية ، فلما ولي «عمر بن عبدالعزيز» جعلها تابعة للخلافة مباشرة لأهميتها واتساعها ، وأقام عليها «السمع بن مالك الخولاني» سنة (١٠٠ هـ = ٧١٩ م) ، غير أن تبعية «الأندلس» لإفريقية عادت مرة أخرى فى عهد «يزيد بن عبد الملك» .

ويعد «السمع» من خيرة ولاة «الأندلس» ، فضلاً وصلاً وكفاءة وقدرة ؛ حيث نظم شئون البلاد ، وأعاد بناء القنطرة التى كانت مقامة على الوادى الكبير ، وكانت قد تهدمت ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا فى السفن ، وكان العرب فى أمس الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور إليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة ، كما أعاد الأمن والاستقرار إلى البلاد لحسن سياسته ، وحمله الناس على طريق الحق ، ورفقته بهم .

ولم يكن «السمع بن مالك» كفتاً من الناحية الإدارية فحسب ،

أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب فى الشرق ، والجنوب ، والجنوب الشرقى .

* الحر بن عبدالرحمن الثقفى :

لم تجر الأمور على النحو الذى أراده «أيوب» ؛ إذ قام والى إفريقية الذى تتبعه «الأندلس» بتعيين «الحر بن عبدالرحمن» والياً عليها ، ودام حكمه سنتين وثمانية أشهر ، بدأت فى (ذى الحجة ٩٨ هـ = يوليو ٧١٧ م) ، واستطاع خلالها أن يجمع المنازعات التى كانت بين العرب والبربر ، ويصلح الجيش ، وينظم الإدارة ، ويوطد الأمن .

وينسب إلى «الحر» إقامته دار الإمارة فى «قرطبة» فى مواجهة «قنطرة الوادى» ، وكانت من قبل مقراً للحاكم القوطى ، فاعتنى بها «الحر» وسمى القصر والأرض الواسعة أمامه على ضفة النهر «بلاط الحر» .

وبعد أن تولى «عمر بن عبدالعزيز» الخلافة عزل «الحر» عن ولاية «الأندلس» ، لاضطراب النظام فى آخر عهده .

أن متوسط فترة حكم الولى تقل عن سنتين ، وهذا يعنى أن عدم الاستقرار هو السمة الغالبة على هذه الفترة ، ويعود ذلك إلى اضطراب السياسة العامة بعد وفاة «الوليد بن عبد الملك» وانتشار العصبيات القبلية والشخصية ، ونزاع العرب مع البربر .

* أيوب بن حبيب البلخى :

قتل «عبدالعزيز بن موسى بن نصير» والى الأندلس عندما وثب عليه جماعة من الجند على رأسهم وزيره «زياد بن عذرة البلوى» أثناء صلاته بأحد مساجد «إشبيلية» ، وذلك فى (رجب ٩٧ هـ = فبراير ٧١٦ م) ، لتبدأ فترة عهد الولاة .

وقد آل أمر الأندلس إلى «أيوب بن حبيب البلخى» ابن أخت «موسى بن نصير» ، وهو من العرب الذين اشتركوا فى فتح هذه البلاد ، ثم استقروا بها ، ورأوا أنهم أولى من غيرهم بحكم الأندلس ، ولم تزد ولاية «أيوب» على ستة أشهر لم يفعل فيها شيئاً يذكر سوى نقله العاصمة من «إشبيلية» إلى «قرطبة» لأن موقعها

الأيبرية ، فى شرقها وغربها ، ففتح كورة تدمير (مرسية) صلحاً بعد أن استسلم ملكها ، وقضى على جيوب المقاومة ولذا عده بعض المؤرخين ثالث فاتحى الأندلس ، وكان معروفاً بالصلاح والتقوى والشجاعة والإقدام ، بارعاً فى تنظيم الحكومة وترتيب إدارتها ، متبعاً سياسة الرفق والاعتدال والوفاء بالعهد .

وبنجاح الفتح الإسلامى تنفس أهالى «الأندلس» نسيم الحرية ، فقد رفعت عنهم المغارم والأعباء ، وعرف الناس سياسة التسامح والإنصاف ، وأمنوا على حياتهم وأموالهم وحررياتهم ، وعاشوا حياة العدل والمساواة ، وترك لهم حق اتباع قوانينهم والخضوع لقضائهم ، ولم يظلم أحد بسبب دينه أو عقيدته ، ولم يفرض الإسلام عليهم فرضاً ، ومن أسلم عن طواعية ودون إكراه ، فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن بقى على دينه لم يكلف بأكثر من الجزية . مقابل حمايته والدفاع عنه وتأمين حقوقه .

* حريق السفن وخطبة طارق :

يرتبط بفتح المسلمين للأندلس مسألة حرقهم لمراكبهم بعد عبورهم المضيق ، والخطبة التى ألقاها «طارق» بعد هذا العبور .



أمامكم . . فلا توجد كاملة فى المصادر الأندلسية الأولى ، مما يشير إلى عدم شيوعها ويقلل من الثقة بواقعتها . وأنها مليئة بالسجع المتكلف الذى لم يكن شائعاً فى ذلك العصر ، كما أن طارفاً وأكثر جنوده كانوا من البربر ، ولا يتوقع أن تكون لغتهم العربية إلى هذا المستوى العالى من البيان ، وهذا لا يمنع أن يكون القائد قد ألقى كلمته فى جنده البربر بلغتهم التى يفهمونها ، ثم جاء من كتاب العرب من نقل معانى تلك الخطبة إلى اللغة العربية ، فأصابها شيء من التعديل والتغيير .

أما مسألة إحراق السفن فإن الدراسة التاريخية ترفض التصديق بقيام مثل هذا العمل من «طارق» ، فلم يكن المسلمون فى حاجة إليه ليخلصوا فى القتال ويحمسوا له ، لأن عملهم جهاد فى سبيل الله ينتظر المسلم من ورائه النصر أو الشهادة ، وقتال من أجل عقيدة يفدون بها بدمائهم وأرواحهم ، كما أن إحراق السفن ليس عملاً عسكرياً مناسباً ، لأنهم فى حاجة إليها بصفة دائمة للاتصال ببلاد المغرب .

وأما الخطبة المنسوبة إلى «طارق» والتى حث فيها المسلمين على الجهاد ، وقال فيها : أين المفر . . البحر من ورائكم والعدو

بل كان أيضاً قائداً عسكرياً ممتازاً قام بحملة شاملة ، اخترقت «جبال البرت» من الشرق ، وسيطر على عدد من القواعد هناك ، واستولى على «سبتمانيا» وأقام حكومة إسلامية بها في هذا الوقت المبكر ، واتخذ من «أربونة» قاعدة للجهاد وراء «البرت» ، وقد استشهد في معركة مع النصارى عند «تولوز» في يوم عرفة من سنة (١٠٢هـ = ٧٢١م) ، فتولى القيادة «عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي» ، وأقر والياً للأندلس حتى يأتي الحاكم الجديد .

* عنبة بن سحيم الكلبي :

قدم إلى الأندلس في (صفر سنة ١٠٣هـ = ٧٢٢م) ، وكان كالسمح بن مالك صالحاً قوياً ، فأنفق وقته في تنظيم الإدارة ، وضبط النواحي ، وإصلاح الجيش ، وإعداده لغزوات جديدة ، وقد عبر «عنبة» بجيوشه «جبال البرت» ، وتمكن من بسط سلطان المسلمين في شرقي جنوب فرنسا ، وفي أثناء عودته داهمته جموع من الفرنجة ، فأصيب في المعركة ، ثم توفي سنة (١٠٧هـ = ٧٢٥م) .

وبعد «عنبة» توالى على «الأندلس» سبعة من الولاة بين سنتي (١٠٧ - ١١٢هـ = ٧٢٥ - ٧٣٠م) تفاقمت خلالها

المشكلات ، وازدادت الاضطرابات ، وانتشر الخلل والخلاف بين الزعماء ورجال القبائل في «الأندلس» ، وتجددت المنازعات بين العرب البلدانين (وهم العرب الذين طال بهم المقام والعمل في إفريقية حتى سمو بالبلدانيين) ، والشاميين ، وهاجم الأعداء القواعد الإسلامية . أصحاب الكفاءات في المناصب المختلفة ، وقمع الظلم ، ورد إلى النصارى كنائسهم وأماكنهم ، وفرض ضرائب عادلة وعنى بتنظيم الجيش وإصلاحه ، وأنشأ فرقاً من العرب والبربر ، وحصن القواعد والثغور الإسلامية ، وجمع أعظم جيش سيره المسلمون إلى فرنسا .



* عبدالرحمن الغافقي :

ظلت الأمور تجري على هذا النحو المضطرب حتى عيّن «الغافقي» والياً على الأندلس من قبل والي «إفريقية» ، في (صفر ١١٢هـ = مارس/ إبريل ٧٣٠م) لتبدأ فترة ولايته الثانية ، وقد أيد الخليفة هشام ابن عبد الملك ذلك الاختيار .

وكان «الغافقي» من كبار رجالات الأندلس عدلاً وصلاحاً ، وقدرة وكفاءة ، نظم شئون البلاد ، وأصلح نظم الحكم والإدارة ، وعين

* موقعة بلاط الشهداء :

في أوائل سنة (١١٤هـ = ٧٣٢م) سار «الغافقي» بجيوشه نحو الشمال وعبر جبال «البرت» من طريق «بنبلونة» ودخل فرنسا؛ حيث قام بمعارك ناجحة ضد أعدائه ، وفتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر ، وواصل زحفه المظفر حتى أشرف بجيشه على نهر اللوار ، وهناك احتشد له «شارل مارتل» بجيش ضخم من الفرنج والمرتقة نصف العراة ، ويتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية .

استولى المسلمون على مدينتي «بواتيه» و«تور» ، ثم فاجأهم العدو دون أن تشعر به طلائع المسلمين أو تحسن تقدير عدده ، وأراد عبدالرحمن أن يقتحم «اللوار» ففاجأه «شارل مارتل» بجموعه الجرارة فارتد إلى السهل الواقع بين مدينتي «بواتيه» و«تور» ، وعبر جيش الفرنج «اللوار» وعسكر غربي الجيش الإسلامي .

عزم «الغافقي» على لقاء العدو على الرغم من أن بعض قبائل البربر في جيشه كانت تتوق إلى الانسحاب بما تحمله من غنائم كثيرة ، وأن عدد جنوده قد قل

بسبب تخلف حاميات كثيرة في المدن والقرى المفتوحة .

ودامت المعركة تسعة أيام دون أن يحقق الفريقان نصراً حاسماً ، وفي اليوم العاشر أبدى كلا الطرفين غاية الجلد والشجاعة ، وظهر الإعياء على الفرنج ، وبدت علامات انتصار المسلمين ، لكن حدث أن افتتح الفرنج ثغرة في معسكر غنائم المسلمين وارتفعت فيه صيحة مجهول تقول إن معسكر الغنائم سيقع في يد العدو ، فارتدت قوات كبيرة إلى ما وراء الغنائم لحمايتها ، واختلت صفوف المسلمين ، وبينما يحاول «الغافقي» إعادة النظام إلى جيشه أصابه سهم أراه من فوق جواده قتيلاً ، فعم الاضطراب بين المسلمين ، وكثر القتل فيهم ، واشتد الفرنج عليهم ، لكنهم صبروا حتى جن الليل وافترق الجيشان دون فصل في (أوائل رمضان ١١٤هـ = ٢١ أكتوبر ٧٣٢م) ، ثم انسحب المسلمون نحو مراكزهم في «سبتمانيا» تاركين غنائمهم .

وفي فجر اليوم التالي تقدم «شارل» بحذر فوجد المعسكرات الإسلامية خالية إلا من الجرحى ومن لم يتمكنوا من مرافقة الجيش المنسحب فذبحوهم ، وخشى «شارل مارتل» الخديعة فاكتفى بانسحاب المسلمين ولم يتعقبهم ، وآثر العودة بجيشه إلى الشمال .



وكان مقتل «الغافقي» خسارة فادحة للمسلمين ، وضربة شديدة لمشاريع الخلافة في الغرب ؛ إذ أخفقت آخر محاولة بذلتها لفتح العالم الغربي .

* عبد الملك بن قطن الفهري :

تولى «عبد الملك بن قطن الفهري» بعد استشهاد «الغافقي» ، فعبر إلى الأندلس في جيش من جند إفريقية في أواخر سنة (١١٤هـ = ٧٣٢م) وسار إلى «أراجون» وهزم الثائرين في عدة مواقع ، ثم عبر جبال ألبرت إلى بلاد «البشكنس» سنة (١١٥هـ = ٧٣٣م) ، وكانت أشد المقاطعات الجبلية مراساً وأكثرها انتفاضاً وثورة ، فشنت جندها وأجأهم إلى طلب الصلح ، ثم اضطر بعد ذلك إلى أن يرتد إلى الجنوب دون أن يتوغل كثيراً في أرض العدو ، لقلة ما معه من الجند ، ثم سخط عليه الزعماء ، ودب خلاف بين القبائل ، وأدى ذلك إلى عزله .

* عقبة بن الحجاج السلولي :

تولى سنة (١١٦هـ = ٧٣٤م) بعد «عبد الملك بن قطن» وكان رجلاً عظيماً مثل «الغافقي» ، فنشر العدل ورد المظالم ، وأنشأ المساجد ودور العلم ونظم الجيش ، وتوغل في أراضي «جليقية» شمالي الأندلس ، واهتم بتحسين جميع المواقع الإسلامية ، ومنح عناية خاصة لثغر «أربونة» واتخذ قاعدة للجهاد ،

وأمد رجاله بالجند والذخيرة . وكان يخرج للغزو كل عام على مدار خمس سنوات في الجنوب والشمال الشرقي من فرنسا ، حتى أصبح نهر «الرون» رباط المسلمين ومعقل فتوحاتهم بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما في أيدي المسلمين ، وقد استشهد «عقبة» في معركة مع الأعداء سنة (١٢١هـ = ٧٣٩م) ، فكان خاتمة الولاة المجاهدين وراء ألبرت .

* عبد الملك بن قطن :

أقام عرب الأندلس «عبد الملك ابن قطن» والياً عليهم للمرة الثانية ، فكان عهده بداية عهد من الفتن ضد الشاميين ، ثم ما لبث أن تبين

أنها موجهة إلى العرب جميعاً ، وأن البربر يسيرون في جيوش ثلاثة : واحد منها متجه إلى «طليطلة» ، والثاني نحو «قرطبة» ، والثالث نحو «الجزيرة الخضراء» .

وفي تلك الأثناء كان «بلج بن بشر القشيري» أحد قادة والي المغرب محاصراً في «سبتة» مع عشرة آلاف من جنده من قبل البربر الذي ثاروا في إفريقية ضد العرب ، تلك الثورة التي انتقلت أصداؤها إلى الأندلس ، فثار البربر هناك ضد العرب .

وقد استغاث هؤلاء المحاصرون بوالى الأندلس «عبد الملك بن قطن» وطلبوا منه أن يسمح لهم بالعبور

إليه لمعاونته في القضاء على ثورة البربر ، فاستجاب على مضض ، وطلب من «بلج» أن يعود بمن معه إلى شمال إفريقية متى صلحت الأحوال .

وقد حقق هؤلاء مع «عبد الملك» انتصارات على البربر في شذونة ، وقرطبة ، ثم في معركة حاسمة قرب طليطلة عند وادي سليط قرب الجزيرة الخضراء في أوائل سنة (١٢٤هـ = ٧٤٢م) ، وأخذ العرب الشاميون بطاردون البربر ، فتركوا أراضيهم في الوسط والشمال الغربي ، وعادوا إلى إفريقية في هجرات جماعية تركت آثاراً سيئة على مستقبل المسلمين في الأندلس .

وكان من نتيجة تلك الهجرات أن تركت الأراضي شمالي نهر تاجة خالية من المسلمين تقريباً ، فامتد إليها نفوذ نصارى الشمال ، فسادوا فيها ، ولم يمر وقت طويل حتى أصبحت تلك الأراضي نصرانية ، وخسر المسلمون بذلك ربع شبه الجزيرة ، نتيجة انقسامهم وبغض بعضهم بعضاً .

رفض «بلج» العودة إلى المغرب حسب الاتفاق ، وقام بعزل «عبد الملك» وزعم أنه والى الرسمي بتأييد من اليمانية ، وانقسمت الأندلس إلى معسكر للشاميين يضم مائتي ألف ،

وآخر للعرب البلدانين ضم مائة ألف ، ونشبت معارك قتل فيها «بلج» ومع ذلك انتصر الشاميون ، وولوا على الأندلس «ثعلبة بن سلامة العاملي» في (شوال سنة ١٢٤هـ = أغسطس ٧٤٢م) ، فحاول أن يعيد الأمن والاستقرار ، لكن الحكومة كانت قد ضعف سلطتها ، وانقسمت البلاد إلى عدة مناطق نفوذ ، واشتعلت الحرب من جديد ، ولم يتخذ الموقف إلا قدوم الوالى الجديد .

* أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي :

أرسله والى إفريقية فقدم إلى «الأندلس» في (رجب سنة ١٢٥هـ = مايو ٧٤٣م) ، وبدأ ولايته بتأمين العرب البلدانين والبربر على ممتلكاتهم ومصالحهم ، وحال بين الشاميين وبين إيذائهم ، وعمل على القضاء على المنازعات القبلية بين السكان ، ورأى بعد نصيحة ذوى الرأي أن يفرق الشاميين في مناطق لا يوجد فيها بلدانيون أو يمينيون ، ويستقر كل فريق منهم بناحية ويأخذ ثلث خراج الأرض مقابل أن يقدموا عدداً معيناً من الجند ، كلما طلبت السلطات منهم ذلك ، كما تتبع الزعماء الخارجين وسلك معهم سبيل الحزم ، وكان عادلاً فرضى عنه الجميع .



عهد الإمارة الأموية الأندلسية

[١٣٨ - ٣١٦هـ = ٧٥٥ - ٩٢٨م]

عبد الرحمن الداخل يحكم الأندلس (١٣٨ - ١٧٢هـ = ٧٥٥ - ٧٨٨م) :

سقطت الدولة الأموية بالشرق سنة (١٣٢هـ = ٧٤٩م)، واضطهد العباسيون الأمويين، وطاردهم في كل مكان، لكن واحداً منهم هو «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك» تمكن من الوصول إلى الأندلس



وقد اتصل بمعاوية مولاة «بدر»، الذي كان قد نزل بساحل «البيرة» في كورة

«غرناطة» موطن أهل «الشام» بموالي خلفاء البيت الأموي والقرشيين عامة وبالكلبية اليمنية، خصوم الوالي يوسف الفهري، ثم عبر عبد الرحمن إلى الأندلس في ربيع سنة (١٣٧هـ = ٧٥٤م)، ونزل بثغر «المنكب» لموقعه الممتاز، وقد التف الناس حوله بما في ذلك جماعات البربر، على أمل أن ينقذهم من الأوضاع المتردية.

تقدم عبد الرحمن نحو العاصمة «قرطبة»، وجمع «يوسف الفهري» و«الصميل» ما أمكنهما من قوات، والتقى الفريقان عند «المصاراة» أو «المسارة» بالطرف الغربي، وخطب الجند، وعُد ذلك اليوم ميلاداً

بعد أن عبر فلسطين ومصر، ثم لحق به مولاة «بدر» وهو رومي الأصل، ومولاة «سالم» ومعهما شيء من المال والجواهر، ثم وصل «عبد الرحمن» إلى «برقة» والتجأ إلى أخواله من «بنى نفزة» - من برايرة طرابلس - وأقام عندهم مدة، ثم غادر إلى المغرب الأقصى، وتجول هناك، متغلباً على ما قابله من صعاب، وأقام حيناً عند شيوخ البدو، وحيناً عند بعض رجال قبيلة زناتة، وكان أثناء ذلك يدرس أحوال الأندلس، ويرقب الفرصة المناسبة للعبور إليها.

وإصلاحه، والقضاء على خصومه، وشغلت الخلافة بمشاكلها عن الأندلس. ثم ظهر في شمال البلاد رجل يدعى «عامر بن عمرو بن وهب العبدري»، وبدأ يرأس الخليفة العباسي «أبا جعفر المنصور»، وعين نفسه والياً على الأندلس، وأصبح الشمال في قبضته، وخرج عن سلطان «يوسف» الذي توجه إلى «سرقسطة»، وحاصرها بشدة سنة (١٣٧هـ = ٧٥٤م) حتى استسلم «عامر»، ثم اتجه «يوسف» بعد ذلك إلى «طليطلة».

وفي طليطلة جاء رسول من قرطبة بخبر مؤده أن فتى من بنى أمية يدعى «عبد الرحمن بن معاوية» قد نزل في ثغر المنكب بالأندلس، واجتمع حوله أشباع بنى أمية في «كورة غرناطة»، وأن دعوته انتشرت بسرعة في الجنوب، وقد ذاع هذا الخبر في جند يوسف فأحدث فزعاً واضطراباً، وتفرق عنه جنده، فاضطر هو و«الصميل» بالعودة بمن معهما متوجهين إلى قرطبة؛ لمواجهة هذا الخطر الداهم، وكان ذلك سنة (١٣٨هـ = ٧٥٥م). وأثناء هذه الفتن استولى الفرنج على جميع القواعد الإسلامية في الشمال ماعدا «أربونة» أمنع قلاع

غير أن «أبا الخطار» مالبت أن تخلى عن تلك السياسة الحكيمة، ومال إلى قومه من اليمنية وتنكر للمضرية، فعادت المعارك بينه وبين خصومه من جديد، وقتل بعضهم بعضاً، وانفضت عنه جنده، وعمت الفوضى البلاد إلى أن تولى الفهري.

* يوسف بن عبد الرحمن الفهري :

تولى الأندلس سنة (١٢٩هـ = ٧٤٧م) دون مصادقة من إفريقية أو من دمشق التي كانت قد بدأت فترة من الضعف فلم تتمكن الخلافة من الإشراف على الولايات، واستقلت الأندلس بشؤونها.

استقل «يوسف» بولاية الأندلس نحو عشرة أعوام، واتفق مع «الصميل بن حاتم» زعيم المضرية على أن يتداولوا السلطة فيما بينهما، لكن الأمور لم تستقر، وتجدد النزاع بين المضرية واليمنية، ولم تستقر الأوضاع ليوسف إلا بعد مقتل زعيم اليمنية سنة (١٣٠هـ = ٧٤٨م).

وقد حاول «يوسف» إصلاح الدولة، فنظم شئونها المالية، وقسم البلاد إلى خمس ولايات إدارية على نحو ما كانت عليه زمن القوط، كما عني بتنظيم الجيش



والقادة وبعث بها إلى القيروان ، ووضع رأس العلاء في سفظ ومعه اللواء الأسود ، وسجل المنصور بتوليته ، وحمله بعض ثقة التجار إلى مكة ، وكان المنصور يحج ، وألقى هذا أمام سراقه ، فلما حمل إليه قال : « مافى هذا الشيطان مطمح ، فالحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر » .

ولم يكن على عبدالرحمن أن يواجه مشاكل الجنوب فقط بل شمالى الأندلس أيضاً ، فقد ثار عليه « سليمان بن يقظان » والى « برشلونة » و « الحسين بن يحيى » والى « سرقسطة » ، مستغلين طبيعة

واجتاز جبال ألبرت ، والتقى بحلفائه على نهر الإيرو عند سرقسطة ، لكن حاكم سرقسطة عدل عن موقفه في آخر لحظة ، ورفض تسليم مدينته لشارلمان ، وحصنها فتمكنت من رد هجماته عليها ، وكذلك فعل والى برشلونة ، واضطر « شارلمان » أن يرتد إلى بلاده بسبب ثورات قامت عليه سنة (١٦١هـ = ٧٧٨م) ، وهكذا شاءت العناية الإلهية أن ييؤء عاهل الفرنج بالفشل بعد أن اختلف معه هؤلاء الخارجون على عبدالرحمن ، وانقلبوا إلى مقاومته .

بلادهم الجبلية وانشغال عبدالرحمن بحركات الثائرين في الجنوب ، ثم استفحل خطرهم بعد انتصارهما على جيش أرسله عبدالرحمن . ولم يكتف الثائران بذلك بل قدما على رأس وفد إلى « شارلمان الأكبر » إمبراطور الدولة الفرنجية ، وكان في ولاية « سكونيا » شمالى ألمانيا حالياً ، واقترحا عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية ، وتعهدا بمعاونته ضد عبدالرحمن ، وأن يعمل جميعهم على خلعه ، وتسليم البلاد إلى شارلمان والخضوع له . وقد رحب شارلمان بهذا العرض

باجة ومن ذوى الرئاسة بها ، وكان قد كاتب « أبا جعفر المنصور » الخليفة العباسى ، واستصدر منه سجلاً بولاية الأندلس ، وجمع حوله جنداً عظيماً ، ورفع العلم الأسود شعار العباسيين سنة (١٤٦هـ = ٧٦٣م) ، فاشتعلت باجة بنيران الثورة ، وتحالفت « شذونة » مع الثائر ، فخرج عبدالرحمن من قرطبة ولجأ إلى الدفاع أولاً ، فلما ضعف خصمه تحول إلى الهجوم ، ونشبت معارك هزم فيها العلاء وتشتت جنده ، وقتل الآلاف بما فيهم العلاء نفسه ، وحمل عبد الرحمن رؤوس الزعماء

أثبت أنه لا يفرق بين شامى أو بلدى ، أو بين بربرى ويمنى ، فجميعهم يضمهم وطن واحد ، وعليهم أن يخضعوا لسلطان العاصمة المركزية . غير أن تلك السياسة لم تعجب اليمنيين ، وعدوها لوئاً من الجحود والنكران فثاروا عليه ، لكنه تمكن من القضاء عليهم فى الجزيرة الخضراء ، وإشبيلية ، وطليطلة ، وباجة ، معتمداً على حشود البربر وأهل البلاد وأعوان بنى أمية . ولعل من أخطر الثورات التى واجهت عبدالرحمن ثورة « العلاء ابن مغيث الحضرمى » ، من وجوه

للدولة الأموية فى الأندلس ، ولقب « عبدالرحمن بن معاوية » بعبدالرحمن الداخل ، لأنه أول من دخل الأندلس من بنى أمية حاكماً . ولم يكن عمر « عبدالرحمن الداخل » حين حقق هذا الإنجاز يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، لكنه كان رجل الموقف ، شحذت همته الخطوب والمحن ، وأعدته حياة النضال والمغامرة ، فقضى بقية عمره اثنين وثلاثين عاماً فى كفاح مستمر ، لايتتهى من معركة إلا ليخوض أخرى ، ولايقمع ثورة إلا تلتها ثورة ، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه ، ولاقبيلة إلا نازعته فى الرئاسة ، فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يشتعل بنيران الحرب والثورة والمؤامرة ، لكنه صمد لتلك الخطوب جميعاً ، واستطاع بما أوتى من حزم وحسن سياسة وبعد الهمة والجلد والإقدام أن يغالب تلك الأخطار والقوى وأن يقبض على زمام الأمور بالأندلس بيده القوية .

وقد تصور اليمينيون أن من حققهم ماداموا قد ناصروا « عبدالرحمن » أن يفعلوا ما يشاؤون ، فينشروا الفوضى ويستولوا على أموال الناس ، ويغرقوا البلاد فى مستنقع العصبيات القبلية كما كان الحال من قبل ، لكن عبد الرحمن



وفي الوقت الذي كانت تجرى فيه هذه الحوادث في الشمال، كان عبدالرحمن في الجنوب يحارب الثائرين عليه، ففضى على ثورة مؤيدة للعباسيين في «مروسة»، وقمع ثورات أخرى في غرناطة وطليلة والجزيرة الخضراء، ثم توجه إلى سرقسطة في جيش ضخم وعقد صلحاً مع الثائرين بها، ثم عاد إليها مرة أخرى فحاصرها وضربها بالمنجنيق، ثم اتجه إلى الشمال الشرقي واخترق

بلاد البشكنس، ففرض عليها الجزية، ثم عاد مظفراً إلى قرطبة سنة (١٦٧هـ = ٧٨٣م) وبعدها عقد صداقة مع شارلمان استمرت بقية حياته، ثم قاد حملة سنة (١٦٨هـ = ٧٨٤م) إلى طليطلة؛ حيث هزم زعيم الفهرية هناك بعد معارك شديدة وقتال في أكثر من موقع. ولما شعر عبدالرحمن بهدوء نسبي، استدعى بنى أمية من المشرق، فأقبل إليه كثيرون،

استعان بهم في تحمل بعض المسئوليات، لكنه فوجئ بأن من بينهم من ينقم عليه، ويقيم ضده المؤامرات، فاضطر إلى أن يعتمد على المخلصين من موالى بنى أمية ومن انضم إليه من أهل البلاد، بالإضافة إلى قوة من الصقالبة اشتراهم صغاراً من بلاد النصارى ورباهم تربية إسلامية، ونشأهم تنشأة عسكرية، وأصبح هؤلاء عنصراً أساسياً من عناصر القوة السياسية في الأندلس.

وتوفي عبدالرحمن في (١٠ من جمادى الآخرة ١٧٢هـ = ١٦ من أكتوبر ٧٨٨م) بعد حياة طويلة قضاه في كفاح متواصل، ومواجهة للصعاب والأهوال، وأقام ملكاً ودولة فوق بركان يضطرم بالثورات والمؤامرة، وأثبت أنه بطل فريد من أبطال التاريخ، لا وجود الزمان بمثله كثيراً، فتى شريداً بلا أنصار وأعوان يفر من الموت الذي تعرضت له أسرته، لكنه يستغل ظروف الأندلس فيفقدوها بكثير من الدهاء والحزم

والعزيمة والذكاء، ويقيم دولة على أسس إدارية وسياسية ومالية ثابتة. ويزيد من قيمة ما قام به أن من حكمهم تعودوا على الفوضى والأنانية، وتقديم المصالح الشخصية على المصالح القومية، ولم يكن باستطاعة عبدالرحمن إلا أن يعامل هؤلاء بما يستحقون من شدة وقسوة، لكنه أصبح في أخريات أيامه شديد الاستبداد، لا يقبل المناقشة من أحد حتى مولاه «بدر» غضب عليه، وأقصاه بعد طول خدمة.

وأفضل ما يميز به؛ عقله المرتب وأسلوبه المنظم، فقد كان يدرس مشاكله، ويتلقى أخبار الثورات بجنان ثابت، ثم يرسم خطته للقضاء عليها، ويصفه ابن حيان أمير مؤرخي الأندلس بقوله:

«كان راجح العقل، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم.. متصل الحركة لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا يتفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً، مقداماً..»

- نظام حكومة عبدالرحمن: لم يكن هناك نظام لولاية العهد، وكان اختيار ولى العهد يترك للأمير، وأنشأ عبدالرحمن منصب الحجابة، وأحاط نفسه بمجموعة من الأعوان يساعدونه في القيام بمهام الحكم بدلا من الوزراء، وقد اختارهم في أول الأمر من بين أعوانه الذين استقبلوه وقاتلوا معه، فكانت حكومته عريضة شكلا وروحاً، ثم مال إلى البربر والموالى بعد أن استتراب في العرب وشك في ولائهم له، لثوراتهم المتعددة عليه.

وقد منح الجيش عناية خاصة، فجنّد مائة ألف عدا حرسه البالغ أربعين ألفاً من العرب والموالى والرقيق، كما عنى بالبحرية في أخريات حياته، وأنشأ عدة قواعد لبناء السفن.

- عناية الداخل بالإنشاء والتعمير:

عنى «عبدالرحمن الداخل» عناية فائقة بالإنشاء والتعمير في قرطبة على الرغم من كثرة مشاغله، فحصن العاصمة وزينها بالحدائق، وأنشأ منية الرصافة وقصرها العظيم في الشمال الغربي على بعد ٤ كم من قرطبة، وقد أحاطها بالحدائق الزاهرة، وأطلق عليها الرصافة، تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده «هشام بن عبدالملك» بالشام،



هشام الأول بن عبد الرحمن المعروف بالرضي

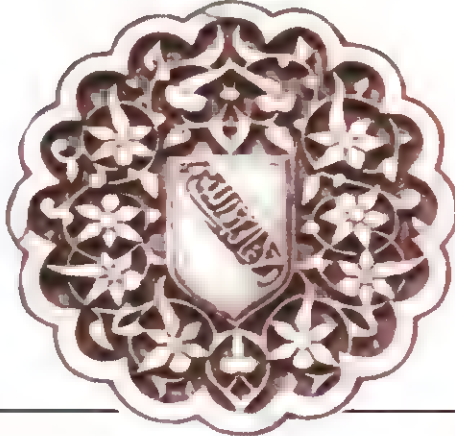
[١٧٢ - ١٨٠ هـ = ٧٨٨ - ٧٩٦ م]

خلف «هشام» أباه «عبد الرحمن» على حكم الأندلس، الذي اختاره لا لأنه أكبر أبنائه، بل لما توسمه فيه من المزايا الخاصة، وقد أبدى «هشام» لينا وورعا، وحسن سياسة، وبصرًا بالأمر، فجذب الناس إليه بإقامته للحق وتحريه للعدل، ومعاقبته للولاة المقصرين.

رحب بهم هشام، وسمح لهم بتدريس مذهب «مالك»، وأخذ القضاة يصدرن أحكامهم بناءً عليه، واتخذ منهم هشام كبار قضاة ومستشاريه، وشيئًا فشيئًا أصبح المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة.

وحصرت الإمارة الأندلسية على جعل اللغة العربية لغة الدواوين الرسمية، ولغة الدرس والتعليم، ولم تكن تقبل إلا ما هو عربي، وكان ذلك اتجاهًا عامًا سار عليه الأمويون في حياتهم وتبعهم الناس في ذلك، وبلغ من اهتمام هشام بالعربية أن جعلها لغة نصارى الأندلس ويهودها، وترجم إليها الكتاب المقدس ونصوص الصلوات،

وكان هشام يحب مجالس العلم والأدب، وبخاصة مجالس الفقه والحديث، فقرر إليه الفقهاء والعلماء، وبوأهم أهم المناصب، خلًا لما كان عليه زمن والده، وقد ترتب على ذلك نتائج سياسية واجتماعية ظهرت فيما بعد.



ولم يعكر صفو أيام «هشام» إلا اشتعال بعض الثورات، منها: الثورة التي قام بها أخواه «سليمان» و«عبد الملك»، وانتهت بالصلح سنة (١٧٤ هـ = ٧٩٠ م) على أن يقيما بعدوة المغرب، كما قاد حملة على نصارى الشمال الذين أغاروا على البلاد، فنجح في القضاء عليهم سنة (١٧٥ هـ = ٧٩١ م) ثم تكررت حملاته عليهم، حتى قضى على محاولاتهم التي استهدفت التوسع جنوبًا.

وأهم ما يتميز به عهد «هشام» ذبوع مذهب الإمام «مالك بن أنس»، وحلوله محل مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام الذي اتبعه الأندلسيون، وكان الإمام مالك معاصرًا لهشام بن عبد الرحمن، كثير الثناء عليه، وقد وفد بعض الأندلسيين إلى المشرق وتعلموا على الإمام مالك، أمثال: الغازي بن قيس، وزياد ابن عبد الرحمن المعروف بشيطون، وغيرهما، فلما عادوا إلى الأندلس

الفخمة، والرخام المنقوش بالذهب واللازورد؛ وبلغ ما أنفقه عليه ١٠٠ ألف دينار، ثم زاد خلفاؤه من بعده في هذا العمل، حتى أصبح أعظم مساجد الأندلس.

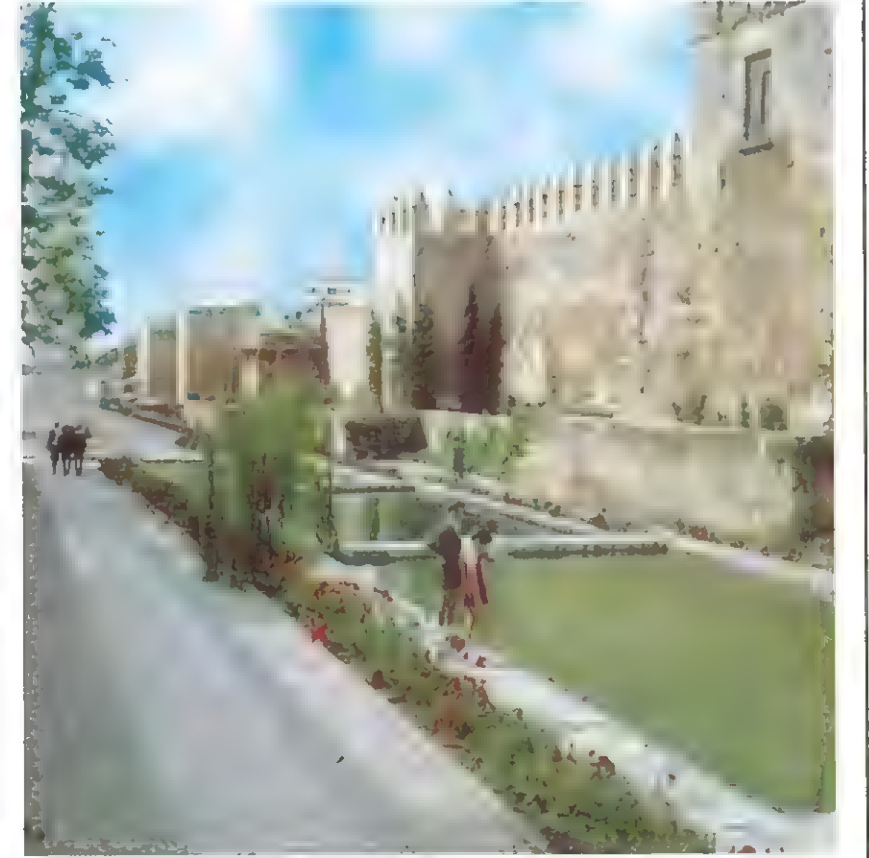
ويقع هذا المسجد في الجهة المقابلة لقصر الإمارة، وبينهما مساحة واسعة استغلها عبد الرحمن في إنشاء قصر خاص لنفسه، وعدد من القصور الصغيرة لآل بيته، أحاطها بالحدائق الغناء، ويسور يدور حولها، وقد امتدت هذه القصور حتى وصلت إلى ضفة نهر الوادي الكبير، فبنى عبد الرحمن قصور الإدارة ناحية النهر، وفتح بابًا في الشارع بين النهر والسور سمي «باب السدة»، فتح للجمهور، ويفضى إلى المكاتب الحكومية، وإلى جانب باب السدة خُصّصت مواقع الكتاب الذين يعاونون الناس في كتابة شكاواهم وطلباتهم، والذين يشبهون من نسميهم اليوم بالكتاب العمومين.

ومن منشآت عبد الرحمن التي بناها في قرطبة، «دار السكة» لضرب النقود على النحو الذي كانت تضرب عليه نقود بني أمية في المشرق من حيث الوزن والنقش.



صندوق من الخشب والعاج

وكان هذا القصر يطل من ناحية الجنوب على الحقول التي تفصله عن قرطبة، ويطل من الشمال على أرض واسعة تسمى «فحص السراوق»، وقد اتخذ عبد الرحمن من ميدانها الفسيح منازل لجنده وقواده، ومكانًا يتدرب فيه الجنود بصورة مستمرة ومنظمة.



سور قرطبة إلى جانب الباب المسمى بالباب المدور

الحكم الأول بن هشام

المعروف بالربضي

[١٨٠ - ٢٠٦ هـ = ٧٩٦ - ٨٢١ م]

بدأ الحكم عهده بالجهاد ضد البشكنس (ثافارا)، لكنه اضطر إلى تركه لمواجهة الثورات التي اشتعلت ضده في الثغر الأعلى سنة (١٨١ هـ = ٧٩٧ م)، وكان عمه «سليمان» و«عبدالله» قد أتيا إليها سرا واتصلا بملك الفرنج وطلبا مساعدتهما،

ولما علم «الحكم» سار بجيوشه إلى الشمال، فاضطر الفرنج إلى الانسحاب، فأحكم سيطرته على هذه المناطق، وفي هذه الآونة حاول عمه الإغارة على قرطبة، فعاد الحكم وهزمهما، وقتل «سليمان»، على حين فر «عبد الله» إلى «بلنسية» والتزم الهدوء طوال فترة الحكم.

وفي سنة (١٨٥ هـ = ٨٠١ م) سير «شارلمان»، جيشاً لغزو «برشلونة»، وكان الحكم مشغولاً بمطاردة الخارجين عليه، فلم يتمكن من نجدة المدينة، فسقطت بعد كفاح مشرف، وقد استقل حكام القوط بهذه المنطقة عن الفرنج بعد فترة وأنشأوا إمارة «قطلونية» النصرانية، التي اتحدت مع مملكة أراجون، وتمكنا من غزو الجانب الشرقي من مملكة الإسلام في الأندلس، وخسر المسلمون بذلك حصناً منيعاً، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى بعد أن كانت قد تجاوزت جبال ألبرت.

ولم تهدأ العواصف والثورات ضد الحكم، فاكشف في سنة (١٨٩ هـ = ٨٠٥ م) مؤامرة للإطاحة به، لكنه أحيط علماً بما يدبره خصومه ففضى عليهم، وأعدم (٧٢) منهم في صورة بالغة القسوة، مما أثار غضب أهل قرطبة وحقنهم عليه، كما قضى على الثورات المتكررة التي قام بها أهالي طليطلة، مستخدماً أسلوب القتل والاغتيال، حتى إن واليه على طليطلة أعد وليمة دعا إليها كبار رعماء طليطلة، ثم أعدمهم، وألقى جثثهم في حفرة خلف القصر سنة (١٩١ هـ = ٨٠٧ م)، وفي تلك الأثناء غزا الفرنج الثغر الأعلى وحاصروا مدينة «طرطوشة» لكن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم، وإنقاذ المدينة المحاصرة سنة (١٩٣ هـ = ٨٠٩ م)، كما توالى حملات النصاري على أطراف الثغر الأدنى والمنطقة التي بين نهري دويرة والتاجة لبعدها عن قرطبة، وضعف وسائل الدفاع عنها، وعانى المسلمون كثيراً في تلك المناطق من جراء تلك الغزوات،

وتوجه الثوار إلى القصر، وتأهب الحكم ورجاله لردهم، وقد نجحوا في ذلك، ثم مالبت أن شقت قوات الحكم طريقها إلى النهر، وعبرته إلى الضاحية الأخرى موطن الثائرين وأضرمت النيران في جوانبها، فأسرع الثوار إلى دورهم، لإطفاء النيران وإنقاذ الأهل والعشيرة.

وفي هذه اللحظة أحاط الجنود بالثوار، وأوسعوه قتلًا ومطاردة ونهبوا دورهم، واستمرت هذه المأساة ثلاثة أيام، فرّ خلالها إلى طليطلة من استطاع، ثم نودي بالأمان بعد أن هدأت الفتنة، ثم أصدر الحكم قراراً بهدم دور الثوار ولاسيما في الضاحية التي شهدت ميلاد الثورة، فتم محوها تمامًا، ثم أمر بإخراج الثائرين من قرطبة، ففرقوا في الثغور، وعبر بعضهم إلى العدو الأخرى بالمغرب، وهاجر بعضهم إلى طليطلة وشمال غربى الأندلس.

كما ركب نحو (١٥) ألفاً منهم سفناً رست بهم في ميناء الإسكندرية، حيث أقاموا فيها، غير أن والى مصر «عبدالله بن طاهر» أجبرهم على الرحيل، فتوجهوا إلى جزيرة «كرت» وفتحوها سنة (٢١٢ هـ = ٨٢٧ م)، وأسسوا بها دولة زاهرة، بقيت هناك إلى أن استولى عليها البيزنطيون سنة (٣٥٠ هـ = ٩٦١ م).

وعلى الرغم من نجاح «الحكم» في القضاء على هذه الحركة الثائرة، فإن أهل «قرطبة» تضاعفت كراحتهم له، وزاد من نفورهم منه ما فرض عليهم من ضرائب.

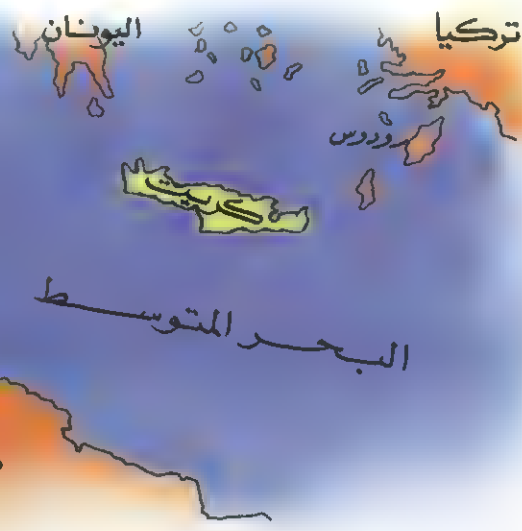
مرض الحكم بعد ذلك، وأخذ البيعة لولى عهده في حياته، وأبدى أسفه لما وقع منه لأهل الربض، ثم مات في (٢٦) من ذى الحجة ٢٠٦ هـ = ٢٢ من مايو ٨٢٢ م) بعد أن لقّب بالربضي، نسبة إلى مقام به من أعمال شنيعة في منطقة الربض الجنوبي.

ولم يكن الحكم الربضي كأيّيه محباً للعلماء والفقهاء، فتراجعت مكانتهم في زمنه وأثر عليهم حضور مجالس الإمام والشعراء، وانصرف إلى حياة اللهو والصيد. ويُعدّ الحكم أول من أظهر هيئة الملك بالأندلس وفخامته، ورُتب

للبلاط نظمه ورسومه، واستكثر من الموالي، فظهر «الصقالبة» بكثرة في بلاطه، وأسند إليهم معظم شئون الحكم والحرس الخاص، ووصل بهم إلى مراتب القيادة والرياسة، كما كانت له شرطة قوية وعيون على الناس.

وضمّت حكومته شخصيات بارزة في تاريخ الأندلس، منهم: «ابن مغيث» الذي تولّى حجابته، واستحدث منصباً يهتم بشئون أهل الذمة، سمّى شاغله بالقومس أو «القمط».

وعلى الرغم من اشتعال الفتن والثورات في عهد الحكم، فقد ازدهرت العلوم والآداب ونبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والعلماء، منهم «عباس بن ناصح الثقفي»، وابنه «عبد الوهاب»، و«أبو القاسم عباس بن فرناس»، و«يحيى الغزال».



عبدالرحمن الثاني (الأوسط)

ابن الحكم

[٢٠٦ - ٢٣٨ هـ = ٨٢٢ - ٨٥٢ م]

تولى «عبدالرحمن» الحكم في (٢٧ من ذي الحجة ٢٠٦ هـ = ٨٢٢ م) بعهد من أبيه ؛ وكان «عبدالرحمن» منذ صغره شغوفاً بدراسة الأدب والحديث والفقه ، ذا عقل مستنير ، خبيراً بشئون الحرب والسياسة ، هادئ الطباع ، حسن العشرة ، متقرباً إلى الناس ، حازماً في أمره ، ولهذا كان مؤهلاً لإزالة ما خلفته إمارة أبيه الحكم من آثار سيئة .

الشمال سكان اسكنديناوه ودانيماركة ، الذين اشتهروا بجوب البحار ومحاولة التغلب على قسوة الجليد وأهوال الطبيعة ، وبدأت جموعهم تغزو فرنسا وشواطئ أوربا الغربية في أوائل القرن التاسع

ثم تعرضت البلاد لعدد من الثورات والفتن والقلاقل في «طليطلة» و«ماردة» دامت سنوات طوال ، واستنفدت كثيراً من الجهد والمال وإراقة الدماء حتى تمكن «عبدالرحمن» من القضاء عليها .

عاود «عبدالرحمن» نشاط الجهاد ، فبدأ يرسل الصوائف كل عام إلى الشمال تارة إلى أطراف الثغر الأعلى لتشتبك مع الفرنجة ، وتارة إلى «ألبة والقلاع» حيث تغير على بلبالب الشكنس وأطراف مملكة جليقية (ليون) ، وكان أحياناً يقود تلك الصوائف ، مثلما فعل سنة (٢٢٨ هـ = ٨٤٣ م) حيث سار بجيشه إلى الشمال ، وزحف على بلاد البشكنس ، وألحق بملكها الهزيمة ، واضطر إلى طلب الأمان ، وعاد عبدالرحمن إلى قرطبة بعد أن وطد نفوذه هناك ، وفرض هيبتة وقوته على البشكنس ، حتى لايتجرأوا على مهاجمة أراضي المسلمين مرة أخرى .

* غزوات النورمان :

المقصود بالنورمان هم أهل

وقد واجه «عبدالرحمن» في أول ولايته سنة (٢٠٧ هـ = ٨٢٣ م) ثورة في «بلنسية» دامت عدة سنوات ، ولم تنته إلا في سنة (٢١٣ هـ = ٨٢٨ م) حيث نجح في القضاء عليها وإخماد فتنتها ، كما واجه ثورة في قرطبة نجح في القضاء عليها أيضاً .

استأنف «عبدالرحمن الثاني» برنامجه في الجهاد مبكراً ، فأرسل في سنة (٢٠٨ هـ = ٨٢٣ م) حملة عسكرية بقيادة «عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث» إلى «ألبة والقلاع» بعد أن أغار ملك جليقية (ليون) على مدينة سالم في الثغر الأعلى ، وقد نجحت الحملة في إلحاق الهزيمة بالنصارى في عدة مواقع ، وخربت مدينة «ليون» وأحرقت حصونها ، وأطلقت سراح المسلمين ، وألزمت القوات المعتدية بدفع جزية كبيرة وعادت الحملة بقيادة «عبدالكريم» إلى قرطبة مثقلة بالغنائم ، وكانت تلك آخر غزوات هذا القائد المظفر الذي استمر يدافع عن الأندلس في ميادين القتال أكثر من ثلاثين سنة ؛ حيث توفي في سنة (٢٠٩ هـ = ٨٢٤ م) .

الميلادى ، تحملهم سفن صغيرة ذات أشرعة سوداء ، تدخل مصبات الأنهار ، وتنشئ لها مراكز داخل البلاد ، وتغير على المدن وتنهب خيراتها ، ثم توقد النيران للتعمية ، ثم تهرب بسرعة .

وكان ظهور هؤلاء في مياه الأندلس لأول مرة سنة (٢٣٠ هـ = ٨٤٥ م) ؛ حيث جاء أسطول لهم في ثمانين سفينة ، ورسا في مياه «إشبونة» فكتب حاكمها إلى «عبدالرحمن» يخبره بذلك ، وحدث احتكاك بين هؤلاء

والمسلمين مدة ثلاثة عشر يوماً ، ثم سار الأسطول النورمانى إلى «قادش» ، ومنها إلى «شدونة» ونهب كل ما وجده في طريقه ، ثم اخترق نهر الوادى الكبير إلى «إشبيلية» ، وظهر هناك بصورة مفاجئة ، ولما لم تكن هناك بحرية تدافع عن تلك المنطقة أو استعداد لمواجهة هذا النوع من العمليات ، فقد عاث النورمان فيها فساداً لمدة سبعة أيام ، وأحرقوا الدور والمسجد الجامع ، ثم غادروا مدينة «إشبيلية» ، وعسكروا في الناحية

الغربية منها . وإزاء هذه التحركات هرع المسلمون لرد العدوان ، ونشبت معاركة تفوق فيها النورمان في أول الأمر ، ثم هزمهم المسلمون بعد قتال عنيف عند «طليطلة» شمالي «إشبيلية» في ٢٥ صفر سنة (٢٣٠ هـ = ٨٤٥ م) ولقى قائدهم مصرعه ، وأحرقت ثلاثون سفينة من سفنهم ، فأقلعت السفن الباقية نحو الجنوب حيث غادروا مياه الأندلس بعد أسابيع من الفرع والرعب .





* نشأة الأسطول :

وقد أدرك النورمان أن الأندلس لن تكون فريسة سهلة لغزواتهم ، فسعوا إلى الصلح مع الأمير عبدالرحمن ، وبعثوا رسلهم يطلبون السلام ، فأرسل الأمير إليهم الشاعر «يحيى الخزال» ردًا على سفارتهم .

وبعد الانتهاء من مشكلة النورمان استأنف «عبدالرحمن» عمليات الجهاد في الشمال ، فأرسل صائفة اخترقت قشتالة القديمة ، وسارت في اتجاه نابارًا (نافار) ، وغزت بنبلونة سنة (٢٣٠هـ = ٨٤٥م) ، ثم توجهت في العام التالي صائفة إلى «جليقية» ، وحاصرت «ليون» عاصمتها ، وحملت النصارى على اللجوء إلى الجبال ، كما أرسل قوة بحرية إلى جزيرتي ميورقة ومنورقة سنة (٢٣٤هـ = ٨٤٨م) تمكنت من السيطرة عليهما .

كان لمفاجأة النورمان أثرها ، فبدأت الحكومة الأندلسية تعطي الاهتمام الكافي للأسطول والتحصينات البحرية ، فبنى «عبدالرحمن» سورًا ضخماً حول «إشبيلية» ، واتخذ قواعد بحرية ، ودوراً لصناعة السفن في «إشبونة» و«إشبيلية» ، و«المرية» و«بلنسية» و«مالقة» ، وعنى بصناعة السفن الكبيرة ، وأعد لها المقاتلة ، وأصبح للأندلس أسطولان ، أحدهما في المحيط الأطلسي ومركزه إشبونة ، والآخر في البحر المتوسط وقاعدته مالقة .

وبدأت تظهر أهمية البحرية الأندلسية منذ منتصف القرن التاسع الميلادي وأثمرت جهوده في فتح الجزائر الشرقية (جزر البليار) ، وهي ميورقة ومنورقة ويابسة ، وتم ضمهما إلى الإمارة الأندلسية سنة (٢٣٤هـ = ٨٤٨م) .

وفى سنة (٢٣٧هـ = ٨٥١م) قامت حرب بين المسلمين وبعض قوات البشكنس الذين هاجموا أراضي المسلمين في أطراف بلاد الشغر الأعلى ، انتهت بانتصار المسلمين .

وقد حرص «عبدالرحمن» على موالاة إرسال الصوائف في كل عام إلى الحدود الشمالية مما يلي «طليطلة» شمالاً ، لأن الصراع هناك كان شديداً ، ولأن أهل طليطلة كانوا يستنجدون بالإمارات النصارية في منازعاتهم مع الإمارة الأندلسية ، ويستنجدون أيضاً بنصارى الشام وبخاصة ملوك ليون .

* المتعصبون النصارى يثيرون فتنة في الأندلس :

تعرضت البلاد في أواخر عهد «عبد الرحمن» الأوسط لفتنة شديدة ، أملت لها روح التعصب ، فقد كره بعض القساوسة والرهبان سيطرة الثقافة واللغة العربية على المجتمع ، وانتشار الإسلام ، ف لجأوا إلى الشكوى لموت الثقافة المسيحية وإلى مواجهة المسلمين وتحديدهم فلم

يفلحوا ، فراحوا يجهرون بسب النبي ﷺ والإساءة إليه ، وإهانة المقدسات الإسلامية علناً وعلى مرأى الناس وفي الطرقات العامة . وقد حمل رجال الشرطة هؤلاء القساوسة والرهبان إلى القضاة ، فكروا الشيء نفسه أمامهم وأصروا على رأيهم ، وحاول القضاة استعمال الرفق معهم في ثنيهم عن أفعالهم فلم ينجحوا ، وتكررت الجرائم ، فاضطر القضاة إلى الحكم بإعدام هؤلاء المتعصبين ، وقتل كثير منهم في صيف سنة (٢٣٧هـ =

٨٥١م) ، فعدهم أحبار النصارى شهداء ، وكان هذا هو هدف هؤلاء المتعصبين ، وتأزم الموقف ، وانتهت نيران الفتنة . واجه «عبدالرحمن» هذه المشكلة بما تستحقه من صبر ، فطلب من قادة النصارى عقد مجمع ديني في قرطبة لمعالجتها بحكمة واتزان ، فأوضح المجمع عواقب هذا العمل الوخيمة ، وأن المعتدلين من النصارى يبرؤون منه ويستنكرونه ، وكان من نتيجة ذلك استقرار الأوضاع وعودة الوثام بين المسلمين

والنصارى بفضل معالجة عبدالرحمن وحسن تأنيه في الأمور .

* وفاة عبدالرحمن الأوسط :

توفي «عبدالرحمن» في (٣ من ربيع الآخر ٢٣٨هـ = ٢٣ من سبتمبر ٨٥٢م) عن عمر يناهز ٦٢ سنة ، بعد أن حكم البلاد أكثر من إحدى وثلاثين سنة ، عدت من أزهى سنوات الحكم الإسلامي في الأندلس ، فقد عاش الناس في رخاء وعم الهدوء والاستقرار البلاد ، وقام الحكم على أسس من العدالة والنظام .





وامتاز عهد عبدالرحمن بالأمن والسكينة . وازدهار الصناعة والزراعة والتجارة ، وازدياد موارد الدولة التى بلغت نحو مليون دينار سنوياً مكنت الأمير من الإنفاق على الحملات العسكرية وإقامة المنشآت العامة ، كما أشرفت الحكومة المركزية على أعمال الحكام من خلال ديوان المظالم المختص بالنظر فى شكاوى الناس من تصرفات بعض رجال الحكومة . ونالت إقامة المباني والمنشآت قسطاً عظيماً من عناية «عبدالرحمن الأوسط» ، فبنى مسجد إشبيلية الجامع ، وزاد فى المسجد الجامع بقرطبة قدر بهوين كبيرين من ناحية القبلة ، ونقل المحراب إلى الجزء الجديد ، وأقام أعمدة أخرى ،

وتوفى يحيى الغزال سنة (٢٥٠هـ= ٨٦٤م) .

المظاهر الحضارية فى عهد عبدالرحمن الأوسط

ظهرت آثار الرخاء وترف الحضارة فى عهد عبدالرحمن فيما بناه الناس من قصور جميلة ، تم تزيينها بالآثاث الفاخر والفرش الوثيرة ، والجوارى الحسان اللاتى جلبن من المشرق ، وانتشرت فى قرطبة البيوت المحاطة بالحدائق المزدانة بالأشجار وأطلقوا عليها اسم «المنى» ، وتوسّع بعض الأغنياء فى الحدائق المحيطة بهذه المنازل حتى أصبحت رياضاً ، أطلق عليها اسم «الجور» ، وفى كل منها مكان معد لغناء المغنيات .

معرفة الوقت ، واشتهر بأول محاولة يقوم بها الإنسان للطيران فى الجو ، كما اخترع شيئاً شبيهاً بقلم الحبر ، وقد أدركته الوفاة فى عهد الأمير محمد بعد ذلك .

- يحيى بن الحكم الجياني «الغزال» :

هو فيلسوف شاعر ، من أصل عربى ، ولد فى جيان بالأندلس ، ولقب بالغزال لاناقتة وجمال هيئته ، كان من الندماء المقربين من عبدالرحمن الأوسط ، فأعجب به وكلفه بالسفارة عنه إلى إمبراطور الدول البيزنطية ، فقام بمهمته خير قيام ، فشجع ذلك النجاح الأمير عبدالرحمن فبعث به إلى ملك النورمان فى الدنيمارك ليتباحث معه فى أمر الصلح بين الدولتين .

وقد اعتمد «عبدالرحمن الأوسط» على عدد من الزعماء والوزراء والقادة المخلصين ، وكان الوزراء يعقدون اجتماعاتهم فى قصر «السدة» فى بيت يسمى بيت الوزارة ، ويحمل الحاجب «رئيس الوزراء» نتيجة مناقشتهم للأمير ، لاتخاذ ما يراه مناسباً . وكان الوزير يتقاضى مرتباً شهرياً قدره (٣٥٠) ديناراً .

وجرى عبدالرحمن على سنة أبيه فى اصطفاء الموالى والصقالبة ، وكان له خمسة آلاف ، منهم ثلاثة آلاف يرابطون إزاء أبواب القصر على الرصيف ، وألفان على أبواب القصر ، وهم الذين كانوا يسمون الخرس بسبب عجمتهم .

ولم يكن عبدالرحمن الأوسط أميراً فحسب ، وإنما كان أديباً شاعراً وعالمًا حكيمًا ، أحاط نفسه بجماعة كبيرة من الشعراء والعلماء والأدباء ، كما كان أول من عنى بجمع الكتب من أمراء الأندلس ، وقد أوفد شاعره «عباس بن ناصح» إلى المشرق يبحث له عن كتب ، فجمع منها طائفة كبيرة كانت نواة مكتبة قرطبة العظيمة ، ومن الشخصيات التى أحاطت به :

- على بن نافع :

الموسيقى المعروف بلقب زرياب (الطائر الأسود) ، وكان قد غادر بغداد إلى قرطبة ، فاستقبله «عبدالرحمن الأوسط» بكل حفاوة ، وعاونته على إظهار فنه ، فأنشأ



الأمير محمد بن

عبد الرحمن الأوسط

[٢٣٨ - ٢٧٣هـ = ٨٥٢ - ٨٨٦م]

رَشَّحَهُ أبوه لولاية العهد ، لأنه رأى أنه أصلح من يتولى الملك ، وإن لم يكن أكبر أبنائه ، وقد وصفه المؤرخون بالانزان والذكاء والعقل وهدوء الأعصاب .



تولى الأمير «محمد» الحكم في ٢٤ من ربيع الآخر ٢٣٤هـ = ٢٤ من سبتمبر ٨٥٢م ، وقدر له أن يقضى فترة حكمه في إخماد الثورات ومواجهة أعداء دولته من النصارى ، فخرج في (المحرم سنة ٢٤٠هـ = يونيو ٨٥٤م) على رأس جيشه إلى «طليطلة» لمواجهة الثائرين فيها من المولدين والنصارى الذين استعانوا بملكى «ليون» ونبرة «نافارة» ، وقد سار الأمير ببعض قواته ، وترك بقية جيشه متخفية وراء تلال «وادى سليط» ، فاغترت قوات طليطلة بقلعة قوات الأمير

فخرجت لقتاله ، وتظاهر الأمير بالهزيمة ، وارتد إلى الخلف ، وعندئذ برزت بقية قوات المسلمين ، وأطبقت على الثوار وحلفائهم من النصارى ومزقتهم تمزيقاً ، وقتل منهم ما بين أحد عشر إلى عشرين ألفاً ، بينهم كثير من القساوسة . وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت الفتنة في طليطلة ، وواصل النصارى تحريضهم زاعمين أنهم يتعرضون لاضطهاد ديني واجتماعي ، فاضطر الأمير «محمد» إلى أن يخرج إلى «طليطلة» سنة (٢٤٤هـ = ٨٥٨م)

بعد أن أرسل حملتين قبل ذلك لم تنجحا في إخماد الفتنة ، فحاصر المدينة ، ولجأ إلى الحيلة في تحقيق النصر ، فهدم قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ، فلما احتشد الثائرون لقتاله سقطت بهم القنطرة في نهر تاجة وغرق منهم عدد كبير ، ثم استخدم كل إمكاناته في سحق المدينة حتى استسلم أهلها وطلبوا الأمان والصلح سنة (٢٤٥هـ = ٨٥٩م) ، ثم حاكم الأمير كثيراً من القساوسة مشعلى الفتنة ونالوا جزاءهم ، وخبت جذوة التعصب .

المسيحيون هياكلهم في عقوده الجانبية ، وبنوا مصلى على شكل صليب في وسطه ، وأزالوا كثيراً من قباب المسجد وزخارفه الإسلامية ، وجعلوا مكانها زخارف نصرانية ، وعلى الرغم من ذلك فإن آيات القرآن الكريم ، والنقوش الإسلامية لاتزال تزين محاريبه الفخمة وأبوابه .

* تجديد الشعر الأندلسي :

بدأت طلائع الشعر الشعبي الأندلسي في الظهور في عهد

وأقواساً فوق الأعمدة الأصلية ، فكانت الأقواس المزدوجة التي يعدها المعماريون من روائع العمارة الإسلامية ، وكان صحن المسجد مكشوقاً يدور حوله سور ، وتزرع فيه أشجار النارنج ، ولهذا سُمِّي بهو النارنج ، وهو الآن صحن الكنيسة .

ولا يزال مسجد قرطبة الجامع باقياً حتى اليوم بكل عقوده الإسلامية وأروقته ومحاريبه ، وقد تحول إلى كاتدرائية في القرن السادس عشر الميلادي ، وأقام





ويجدر بالذكر أن «طليطلة» تعد من أمنع مدن العصور الوسطى بسبب موقعها على المنحدر الصخري من نهر تاجة ، وإحاطة النهر بهذا المنحدر ، ثم لما فيها من حصون قوية وأسوار عالية ضخمة .

ولم تكن «طليطلة» هي المدينة النائية وحدها ، فقد قامت ثورات أخرى في شمال غربي الأندلس في المناطق الجبلية هناك ، وكانت «ماردة» الواقعة في النواحي الغربية المعروفة الآن باسم البرتغال الموطن الرئيسى للمتمردين المولدين بزعامة «عبدالرحمن بن مروان الجليقي» فخرج إليها الأمير محمد سنة (٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م) ، وداهم «ماردة» وهدم أسوارها وحصونها ، فاضطر الثوار إلى طلب الأمان .

ثم تجددت الثورة بعد ذلك بأعوام في «ماردة» و«بطلوس» ، واستولى الثوار على بعض القلاع وتحصنوا بها وكثرت جموعهم ، ولم تغلح حملات الأمير محمد في إخماد الفتنة والقضاء على الثورة ، وانتهى الأمر بقبول شروط زعيم الثائرين عبدالرحمن الجليقي ، بأن يستقل بحكم بطليوس ، ويعفى من الفروض والمغارم ، وأن يكون من حلفاء الإمارة .

ولم تشغل تلك الثورات المتتابة الأمير محمد عن أمر الجهاد ، فتتابعت حملاته العسكرية إلى «آلبه» و«القلاع» وهزمت النصارى في عدة مواقع ، كما اتجهت إلى «نبرة» سنة (٢٤٦ هـ = ٨٦٠ م) ، وقامت بتخريب بنبلونة وحصونها وقراها لمدة أسابيع أسر خلالها ابن ملك «نبرة» ، وكان ملك «نبرة» قد

تحالف مع ملك «ليون» وقاما بمهاجمة الأراضي الإسلامية . وكان يمكن للأمير «محمد» أن يحقق نتائج أفضل في جهاده مع النصارى لولا كثرة الثائرين عليه ، واتساع أراضي البلاد ووعورتها ، مع قلة العرب بالمقارنة إلى المستعربين والمولدين الذين كثرت ثوراتهم وقوى ميلهم إلى الاستقلال .

وكان على الأمير «محمد» أن يواجه خطر النورمان الذين عادوا للهجوم على الأندلس من جديد ، فجاءوا بسفنهم إلى «جليقية» في (٦٢) سفينة عاثت فساداً في الشاطئ الغربي ، لكن السفن الأندلسية كانت متأهبة لها هذه المرة فطاردتها ، فاتجهت نحو مدينة صغيرة تسمى «باجة» تقع في البرتغال اليوم ، لكن المسلمين

هزمهم هناك واستولوا على بعض سفنهم ، فاتجهت باقى السفن نحو الشواطئ الجنوبية عند مصب الوادى الكبير ، ثم انحدرت جنوباً نحو مياه الجزيرة الخضراء ، وقد اتجهت وحدات الأسطول الإسلامى ناحية الغرب وتمت تعبئة القوات وتجهيز السفن بالنفط والرماة ، وحدثت معارك برية وبحرية عند «شدونة» انتصر فيها المسلمون أولاً ، لكن السفن النورمانية عادت وتغلبت ثم توجهت جهة الجزيرة الخضراء وأحرقوا مسجد الجوامع وأفسدوا ونهبوا ، ثم قصدت بعض سفنهم نحو عدوة المغرب ونزلوا شاطئ الأندلس الجنوبي ، وجرت هناك معارك برية وبحرية استمرت أشهراً ، فقد النورمان فيها كثيراً من سفنهم ، فاتجهوا نحو شواطئ

إسبانيا الشرقية ، وعبرت وحدات منهم نهر «ابرو» إلى «نافار» ، فى حين أغارت وحدات أخرى على الجزائر الشرقية وشواطئ «بروفانس» ومن هناك عبروا مصب نهر «الرون» عائدين إلى بلادهم .

وهكذا لم يسلم من تخريب هؤلاء لا الأندلس الإسلامية ولا إسبانيا النصرانية ، ولكن غزوتهم هذه المرة لم تكن مفاجئة ولم يتمكنوا من القيام بعمل كبير ، ولم يكن تأثير عملياتهم واسعاً كما حدث فى المرة الأولى ، وعلى كل حال فتلك آخر محاولة قام بها النورمان ضد الأندلس ، وانتهى خطرهم نهائياً ، فلم نعد نسمع بهم بعد سنة (٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م) .

* ثورة عمر بن حفصون:

وهو من أصل إسباني قوطى ،

ظهر فى جبل «بيشتر» ضمن سلسلة الجبال بين «رندة» و«مالقة» التى تعد مأوى العصاة والخارجين على القانون .

وقد قامت ثورة ابن حفصون فى ولاية «رية» بمحافظة «مالقة» الآن ، وقد التف حوله جماعة من المفسدين ونزلوا جميعاً بجبل «بيشتر» شمال شرقى «رندة» .

ويرجع السبب المباشر للثورة إلى إصرار الحكومة المركزية على بسط سلطانها الكامل على النواحي كافة . وعنف الوالى مع المواطنين وإرهابهم وتشدده فى جباية الأموال ومطالبتهم بالعشور المتأخرة كل ذلك دون أن ينال سكان هذه المناطق الجبلية شيئاً من عناية الحكومة المركزية ، مما شحنتهم بالغضب وجعلهم مهينين للثورة .





وقد بدأ هؤلاء تمردهم وعدم استجابتهم لواليتهم عام (٢٦٥هـ = ٨٧٨م)، واعتصموا في جبالهم، وحاول الأمير «محمد» إخماد حركتهم بالقوة فلم يصل إلى ما يريد، وفي العام التالي أرسلت صائفة إلى كورة «رية» اشتدت في التعامل مع الثائرين وبقيت مع ذلك حركة العصيان وعمت الإقليم كله وانتشرت الفوضى هنا وهناك.

في وسط هذه الظروف ظهر «عمر بن حفصون»، وناب عن الناس في تقديم مطالبهم للحكومة المركزية، لكنه لم يصل إلى شيء.

وبدأ يُغيّر على أطراف الإقليم وينهب ويخرب؛ ثم يعود إلى الاعتصام بجبل «بيشتر»، وقد سارع عامل «رية» إلى التوجه إليه لكنه تعرض للهزيمة على يد «ابن حفصون»، فساعد هذا على تقوية مركزه والتفاف العصاة والمفسدين والأشرار حوله وتولى على الإقليم عامل جديد، اتجه إلى محاربة ابن

وفي صيف (٢٧٣هـ = ٨٨٦م) قاد «المنذر بن محمد» جيشاً توجه إلى «ابن حفصون» لمقاتلته، وبدأ بالزحف على مدينة «الحامة» شمالي شرقي «بالقة» حيث يوجد واحد من حلفاء «ابن حفصون» وقد سار الأخير لنجدة حليفه، وحاصرهما «المنذر» مدة شهرين ثم خرجا لمقاتلة جند الإمارة عندما أوشكت أقواتهما على النفاد، وبعد معركة عنيفة هزم الثوار، وارتد «ابن حفصون» إلى «الحامة» واعتصم بها، وبينما «المنذر» يحاصره ويشدد عليه تلقى نبأ وفاة والده فترك «الحامة»، وعاد إلى قرطبة في (٢٩ صفر ٢٧٣هـ = ٢٦ أغسطس ٨٨٦م)، وبذلك تنفس «ابن حفصون» الصعداء، واستأنف غاراته وفساده ونشر سلطانه على «رية» و«رندة» و«استجة» وغيرها.

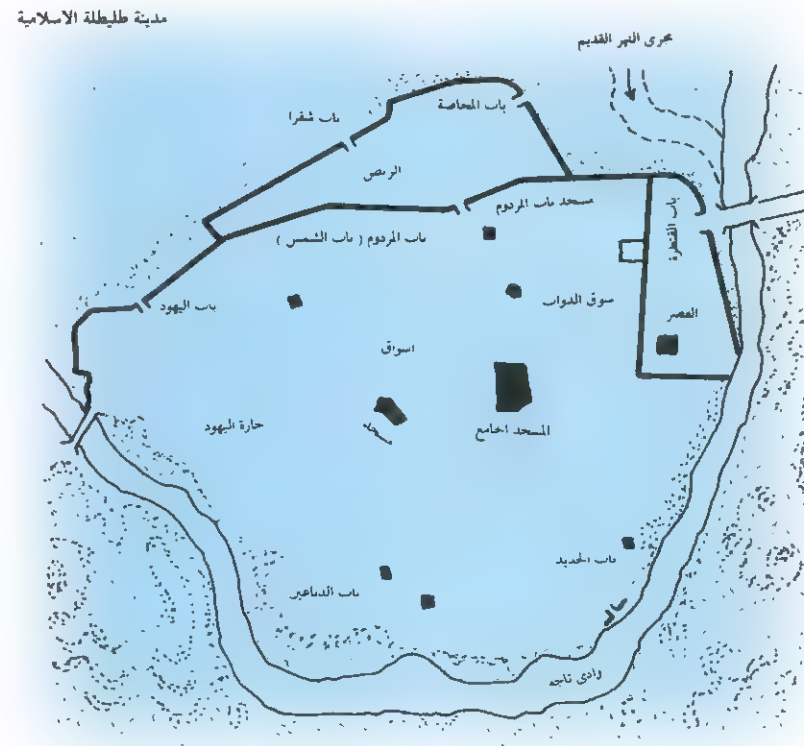
* سياسة الأمير محمد :

عنى الأمير محمد بالجيش بسبب الظروف التي عاشتها الإمارة في زمنه، وكان حريصاً على فرض أعداد من الفرسان على كل ناحية أندلسية تحشد دائماً للصوائف، وهؤلاء كانوا يسمون «الفرسان المستقرين» يضاف إليهم حشود المستنقرة والمتطوعة، مما يدل على ضخامة الجيش الذي كانت الإمارة تستطيع تعبئته.

(٨٨٤م)، ونشر الرعب في المنطقة.

كما عنى بالأسطول لحماية الشواطئ الغربية من ناحية، وغزو مملكة «جليقية» من ناحية أخرى، واهتم بتحصين أطراف الثغور، وأقام قلاعاً منيعة؛ لحماية مدينة «سالم» و«طليطلة»، وبنى حصوناً في «ظلمنكة» و«مجريط» بمنطقة وادي الحجارة.

أما من ناحية سياسته الخارجية فقد جمعته مع أمراء المغرب المعاصرين علاقة صداقة متينة خاصة «بني رستم» في «تيسهت» و«بني مدرار» في «سجلماسة»، وكان يشاورهم في أموره ويهتم بأخبارهم ويستنصحهم، وتتردد الكتب والرسائل بينه وبين هذه الدول بهدف متابعة أخبار «بنى العباس» وأعمالهم في إفريقية وبلاد الشام. كذلك قامت علاقة صداقة بين الأمير «محمد» وملك «فرنسا» وتبادلا الرسائل والهدايا.



أما من الناحية المالية فقد خفف الضرائب على المواطنين رغم حاجته إلى المال للإنفاق على الجهاد والقضاء على الثورات المستمرة، وكان يكتفى من أهل «قرطبة» بجهادهم ولا يكلفهم أعباء مالية، وكان الأمير «محمد» بارعاً في مراجعة الحسابات وموازنة الدخل والخرج، وقد ساعده هذا الضبط للأمور المالية على مواجهة بعض المحن الطبيعية التي تعرضت لها الإمارة في زمنه.

القطرة العربية ومبنى القصر العربي في طليطلة



* النظام الإداري ومظاهر الحضارة :

فقد الصقلية والجواري كثيراً من نفوذهم في القصر أيام الأمير «محمد» واستمر النظام الإداري سائداً كما كان أيام أبيه وتولى مناصب الوزارة الرجال أنفسهم ، ونظمت أعمال الوزراء وتحدد اختصاصاتهم حتى أصبحت قريبة من اختصاص الوزراء في أيامنا هذه؛ حيث اختص كل واحد منهم بفرع من فروع الإدارة ، وقدم وزراء أهل الشام على غيرهم ، وقد تولى الحجابة للأمير «محمد» «عيسى بن شهيد» وهو الذي تولى الحجابة لوالده ورشحه عنده لولاية العهد ، واجتمعت السلطات في أيدي أسرتي «بنى شهيد» و«بنى أبى عبدة» - من أعظم الأسر القرطبية آنئذ - ثم آل منصب الحجابة إلى «هاشم بن عبدالعزيز» من أسرة موألة ، وكان وزيراً أيام

«عبدالرحمن الأوسط» وأصبح من أكثر الوزراء حظوة عند الأمير «محمد» ، وهو من أشهر رجالات الحرب والسياسة . وكان مع ذلك من الأدباء والشعراء المطبوعين .

ومن وزراء الأمير «محمد» «تمام ابن عامر الثقفي» الشاعر المؤرخ صاحب «أرجوزة» فى فتح «الأندلس» وأشهر لاعب شطرنج فى زمنه ، و«سليمان بن وانسوس» من أصل بربرى ، وكان أديباً تولى خطة السوق والحسبة ، ومنهم الكاتب البليغ «عبدالمالك بن عبدالله ابن أمية» .

وقوى نفوذ الفقهاء فى بلاط الأمير «محمد» ، وكان لهم دور فى توجيه سياسته مع النصارى ، وكان متسامحاً معهم كما كان يفعل أبوه ، وقد أبقى عدداً منهم فى مناصبهم . وقد عُرف الأمير «محمد» بالحلم والأناة ومودة آل بيته ، كما كان أديباً ذواقة ، يجتمع حوله أكابر

الناس والعلماء والشعراء من أمثال : «عباس بن فرناس» و«ابن عبدربه» و«ابن حبيب» ، ومن أمثال : «بقي ابن مخلد» أعظم فقهاء «الأندلس» فى زمنه .

وعلى الرغم من أن أحداث فترة حكم الأمير «محمد» لم تتح له فرصة كبيرة للقيام بأعمال إنشائية ، فإنه أولى للمسجد الجامع فى قرطبة اهتماماً كبيراً ، فأتم الزيادة التى بدأها أبوه فى وسط الجامع وأقام فيه المقصورة ، وكان أول من اتخذها ، وأصلح القسم القديم الذى بناه جده «الداخل» وجدده ، كما أصلح جوامع «استجة» و«شذونة» وغيرها . . وأضاف زيادات لقصر الإمارة ، وجدد «منية الرصافة» واستجلب لها الأشجار النادرة واتخذها متنزهاً ، وأنشأ منية خاصة جنوب غربى قرطبة أسماها «منية كتش» جعلها متنزهاً له كذلك .

منظر خارجى لجامع قرطبة .



الإمير المنذر بن محمد

[٢٧٣ - ٢٧٥ هـ = ٨٨٦ - ٨٨٨ م]

كان «المنذر» ولى عهد أبيه ومحل ثقته ، وفارساً شجاعاً ، وقائداً متميزاً اعتمد عليه أبوه كثيراً فى مواجهة المشاكل ومحاربة العصاة وقيادة الحملات .

وفى أول ولاية «المنذر» عادت «طليطلة» إلى الثورة كعادتها ، وانضم إلى أهلها كثير من البربر ، فأرسل الأمير حملة قضت على الثورة وقتلت الألفوف ، وفى العام نفسه قام حاكم الثغر الأعلى بغزو «ألبة والقلاع» ودخل فى حرب ضد النصارى وهزمهم ، لكن أعظم ماكان يشغل «المنذر» هو القضاء على «ابن حفصون» ، بعد أن استفحل خطره وانتشر سلطانه فى نواح كثيرة وانضم إليه المغامرون والثائرون والعصاة فى كل «الأندلس» .

وكان «ابن حفصون» صاحب دعوة سياسية تبغض العرب والبربر معاً ، وعنده نزعة إلى الاستقلال والتحرر ؛ لأن العرب حملوا الناس فوق طاقتهم وزادوهم رهقاً وهو إنما قام ليثأر لهم ، وقد لقيت دعوته استجابة لدى سكان المناطق الجبلية خاصة ، وكان الرجل متواضعاً يكرم الشجعان ، فساعد ذلك على التفافهم حوله . وقد أرسل «المنذر» بعض قواته ،

فاستردت قسماً من الحصون التى كان «ابن حفصون» قد سيطر عليها ، وفى ربيع (٢٧٤ هـ = ٨٨٧ م) خرج «المنذر» بنفسه مصمماً على القضاء على «ابن حفصون» واجتاث ثورته من جذورها ، وقد نجح فى فتح بعض الحصون ، وأسر بعض أعوان ذلك الثائر ، وبعث بهم إلى قرطبة حيث صلبوا ، بينما بقى «ابن حفصون» ممتنعاً ببجبال «بيشتر» .

ولما شدد «المنذر» حصاره وقطع كل علاقات «ابن حفصون» بالخارج ، لجأ «ابن حفصون» إلى الخيلة والخديعة وطلب الصلح على أن يسير معه أهله وولده إلى «قرطبة» فوافق الأمير وبعث إليه فى قلاعه بكل ما طلبه من الأدوات ووسائل النقل ، وتم رفع الحصار ، وعاد الأمير بجيشه إلى قرطبة .

ولما لم يكن «ابن حفصون» وفياً ؛ فقد هرب فى جنح الظلام وامتنع مرة أخرى ببجبال «بيشتر» مستفيداً بما حصل عليه من زاد وأقوات وإمدادات ، فاشتد غضب

الأمير ورجع لمحاصرته ، وأصر على عدم العودة إلى «قرطبة» إلا بعد القبض على «ابن حفصون» حياً أو ميتاً ، ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوماً بعدها مرض «المنذر» ، وطلب من أخيه «عبدالله» أن يحضر ؛ لينوب عنه فى متابعة الحصار ، ثم مات تحت أسوار «بيشتر» بعد حكم لم يستمر أكثر من عامين وكان موته فى (صفر ٢٧٥ هـ = يونيو ٨٨٨ م) ، وتم رفع الحصار ، وعاد الجيش إلى «قرطبة» ، ومرة أخرى يتنافس «ابن حفصون» الصعداء .

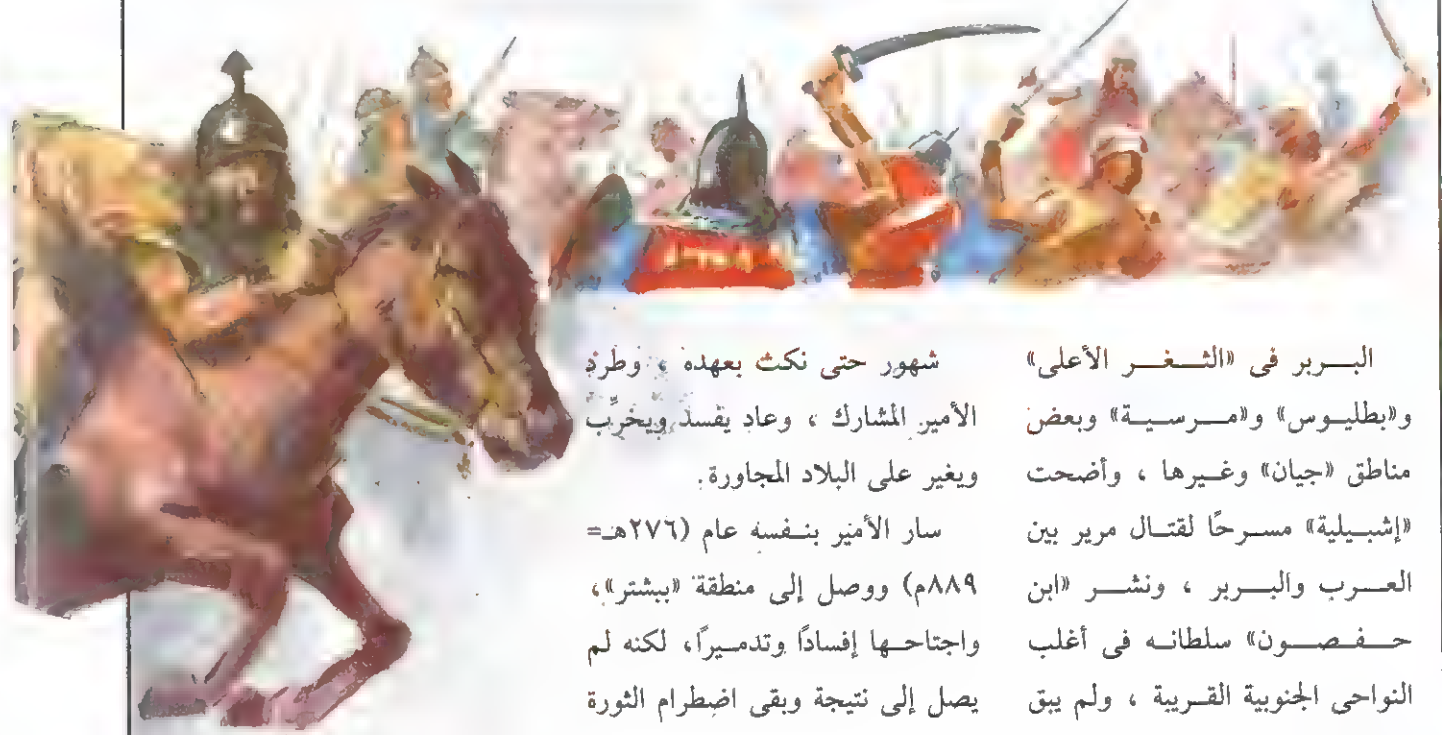


الأمير عبد الله بن محمد

[٢٧٥ - ٣٠٠هـ = ٨٨٨ - ٩١٢م]

ما كاد الأمير «عبدالله» يتولّى الحكم حتى قامت الثورات ضده فى المناطق الجبلية، بل تجاوزت ذلك إلى المدن والقواعد الكبرى،

ولم تعد تقتصر على القادة من المولدين بل تجاوزتهم إلى العرب أنفسهم، وبرز العنصر البربرى واعتصم كثير من زعمائه فى الحصون النائية، وتنوعت المعارك وتعددت بين العرب والمولدين وبين العرب والبربر، وبين العرب أنفسهم بعضهم ضد بعض، وأعلن بعض زعماء العرب استقلالهم فى «جيان» «البيرة» و«لورقة» و«مدينة سالم»، وغيرها. واستقل زعماء البربر فى «الشعر الأعلى» و«بطلوس» و«مرسية» وبعض مناطق «جيان» وغيرها، وأضحت «إشبيلية» مسرحاً لقتال مرير بين العرب والبربر، ونشر «ابن حفصون» سلطانه فى أغلب النواحي الجنوبية القرية، ولم يبق لحكومة «قرطبة» إلا العاصمة وضواحيها تمارس فيها سلطاتها وتخضع لسيطرتها. وكان على الأمير «عبدالله» أن يواجه ذلك كله، ورأى أن أخطر ما يواجهه هو ثورة «ابن حفصون»، وفى الوقت نفسه رأى «ابن حفصون» أنه فى حاجة إلى فترة هدنة وسلام يستغلها فى الاستعداد وتنظيم أموره، لذلك بعث يطلب الصلح مع الأمير، على أن يستقر فى «ببشتر»، ويكون تابعاً للإمارة الأموية، فوافقه عبدالله وأكرم رسله، وبعث أميراً من عنده يشاركه فى حكم الإقليم، ولكن لم تُنص



شهور حتى نكت بعهدة، وطرد الأمير المشارك، وعاد يقصد ويخرب ويغير على البلاد المجاورة. سار الأمير بنفسه عام ٢٧٦هـ = ٨٨٩م) ووصل إلى منطقة «ببشتر»، واجتاحها إفساداً وتدميراً، لكنه لم يصل إلى نتيجة وبقي اضطراب الثورة فى الجنوب. وواصل «ابن حفصون» غاراته فى اتجاه الشمال حتى وصل إلى ضواحي «قرطبة» بل حاول إحراق

الذى يعتصم به «ابن حفصون»، ونجح فرسان الأندلس فى إلحاق هزيمة بالجناح الأيمن لابن حفصون ومزقوا قواته؛ فركب الرعب قلوب بقية الثائرين، وفروا هاربين والخيل تتبعهم، وقُتل كثير منهم وفر «ابن حفصون» إلى الجبال الجنوبية بمن معه واستولى الأمير «عبدالله» على حصنه، ورغم أن ابن حفصون قد أُصيب فى المعركة فإن الأمير أثر ألا يطارده، واتجه غرباً نحو «استجة» التى كانت تناصره، وحاصرها حتى استسلمت ثم سار إلى «ببشتر» فلم يخرج زعيم الثوار لمواجهة وجن عن لقائه، وأثناء ارتداد جيش الأندلس راجعاً اشتبك ابن حفصون مع مؤخرته لكنه هزم فى ربيع عام ٢٧٨هـ = ٨٩١م).

وعلى الرغم من أن ثورة «ابن حفصون» لم تنته تماماً فإنها قد وهنت وأصبح الطريق ممهداً للقضاء عليها.

وقد شهدت المناطق الجنوبية شرقى الأندلس ثورة القبائل العربية، فقد رأت أن حكومة قرطبة تؤثر الموالى، وأن فى ذلك مهانة لها؛ فاستغلت اشتعال فتنة المولدين فى الجنوب والشعر الأعلى فقامت بثورتها فى الجنوب متخذة من كورة البيرة «غرناطة» مركزاً لها، وتزعم الثورة «يحيى بن

صفالة القيسى» عام ٢٧٥هـ = ٨٨٨م)، والتف العرب حوله وقام بمطاردة المولدين والنصارى، ولكنه قتل فى موقعة معهم فخلفه «سوار ابن حمدون القيسى»، وكان شجاعاً ناصره قومه، ولذلك نجح فى انتزاع معظم حصون النصارى والمولدين، ووصل نفوذه إلى قلعة رباح، ومنها زحف إلى البيرة، حيث دارت معركة تسمى «معركة المدينة» بينه وبين جند الإمارة، انهزم فيها والى البيرة ووقع فى الأسر، وقتل كثير من رجاله، ثم أطلق سراحه؛ فانضم إلى «ابن حفصون» وتحالف معه.

أما «سوار» فقد قوى أمره وتضاعف مؤيدوه، وتوجه نحو غرناطة حيث دارت معارك بينه وبين المولدين، وتمكن من هزيمة «ابن حفصون»، ولكن خصوم «سوار» دبوا له من قتله فى كمين فلم تدم رئاسته للعرب إلا نحو عام، وخلفه سعيد بن سليمان بن جودى السعدى زعيم هوازن، وكان معروفاً أيضاً بالفروسية والخطابة والشعر، ونجح بفضل التفاف القبائل حوله من إلحاق الهزيمة بابن حفصون مراراً، ورأى الأمير «عبدالله» أن العرب يسيطرون على البيرة فعين سعيد والياً عليها وبقي بها عدة أعوام ثم انتهى أمره مقتولاً.

وألت رئاسة العرب لمحمد بن أضحى الهمذانى صاحب حصن الحامة (الحمة)، وأقر الأمير اختياره، وتجددت المعارك بينه وبين «ابن حفصون» ولم تسفر عن نتيجة حاسمة، واستمر «محمد» رئيساً على المنطقة حتى تمكن «عبدالرحمن الناصر» فيما بعد من الاستيلاء على حصن الحامة وغيره من المناطق الثائرة.

وقد اتسع نطاق الثورة بين المولدين والعرب فثار فى «بطلوس» وغربى «الأندلس» عدد من زعماء المولدين، وقامت ثورات أخرى فى عدد من المواقع شرقى الأندلس، واستمر بعض الزعماء على تمردهم واستقلالهم حتى عهد الناصر.

أما إشبيلية فكانت مسرحاً لفتنة طال أمدها، ويرجع ذلك إلى طبيعة سكانها الذين كانوا مزيغاً من العرب والمولدين والنصارى، وكان سكانها العرب من أصحاب الثروات والنفوذ وقد جرى لها ما جرى لغيرها، فظهر فيها ثائرون متطلعون للزعامة من أمثال بنى عبدة، وبنى حجاج، وبنى خلدون، وإلى جانب هؤلاء وجد بعض المولدين الأغنياء وكان التنافس بينهم وبين العرب شديداً أدى ذلك إلى فوضى واضطراب فى المجتمع.

ولم تشغل الثورات في «إشبيلية» و«باجة» و«البيرة» و«تدمير» وغيرها حكومة قرطبة عن العمل للقضاء على المولدين وزعيمهم «عمر بن حفصون» في الجنوب ، ولم يمض عامان على هزيمته في «بلاى» حتى أعاد تنظيم قواته ، فأخذت الإمارة توالى إرسال الحملات عليه فسار إليه «المطرف بن الأمير عبدالله» في سنة (٢٨١هـ = ٨٩٤م) وحاصره في «ببشتر» وخرج الثائر للقتال ، فانهزمت قواته ، وقتل أشجع قواده .

وما إن عاد جيش الأمير إلى قرطبة حتى جمع ابن حفصون مجموعة وتوجه نحو «استجة» في الجنوب الغربى من العاصمة ، واستولى عليها ثانية عام (٢٨٤هـ = ٨٩٧م) فتوجه المطرف لقتاله في العام التالى واخترق الجزيرة الخضراء ، وقام بالهجوم على بعض الحصون ووصل إلى «ببشتر» ، وقامت بعض المعارك التى لم تسفر عن شيء .

وفى عام (٢٨٦هـ = ٨٨٩م) أعلن «ابن حفصون» اعتناقه النصرانية وتسمى باسم «صمويل» ، وكان هذا بداية نهايته ، فقد تخلى عنه بعض جنده وقواده وظلوا معتصمين فى حصونهم ، وأرسلوا يعلنون

ولاءهم للأمير عبدالله واستعدادهم للجهاد معه ضد «ابن حفصون» ، وحاول «ابن حفصون» من جانبه تقوية مركزه ف عقد تحالفاً مع ملك ليون ، وبعض أمراء غربى «الأندلس» .

وعادت الحرب من جديد بين «ابن حفصون» يعاونه أمير «إشبيلية» وبين جند الإمارة ، وكان اللقاء الأول عند «استجة» وانتهى بهزيمة «ابن حفصون» هزيمة منكرة عام (٢٨٩هـ = ٩٠٢م) ، وتخلّى عنه حليفه «إبراهيم بن حجاج» وعاد إلى طاعة الأمير ، وتوالت

حملات الأمير بعد ذلك ووصل إلى حصون «ابن حفصون» ومعه «ببشتر» وطاردته ، وقد حطمت قوى هذا الثائر وأنهكته وأضعفت قواه إلا أنها لم تصل إلى القضاء عليه تماماً .

ويجدر بالذكر أن سلطة الأمير الأندلسى لم تنكمش كما انكمشت فى عهد الأمير «عبدالله» ، فلم تتجاوز سيطرته أحياناً قرطبة وضواحيها وقضى خمسة وعشرين عاماً هى مدة حكمه فى كفاح وصراع دائمين بهدف حماية الدولة والحكم الأموى من الانهيار ، وقد



نجحت جهوده فى تفرقة الشوار والسيطرة على بعض القواعد والحصون المهمة ، وفى استمالة بعض الزعماء من ذوى النفوذ ، وكان ذلك معاوفاً للأمير عبدالرحمن الناصر فيما تحقق من نتائج فيما بعض .

ولا ينبغي هنا نسيان الجهد الذى قام به بعض القادة العسكريين الموهوبين فى تحقيق النجاح للأمير «عبدالله» ويأتى على رأس هؤلاء «بنو عبدة» موالى «بنى أمية» ومنهم : أبو العباس «أحمد بن أبى عبدة» الذى قضى من عمره ثلاثين سنة يجاهد فى سبيل وحدة «الأندلس» ، وكذلك ابن أخيه «عبيدالله محمد بن أبى عبدة» الذى حقق انتصاراً رائعاً على «ابن حفصون» فى حصن «بلاى» ، والقائد «جعده بن عبدالغافر» الذى أسهم كثيراً فى إضعاف قوى «ابن حفصون» ، وكذلك الزعيم البربرى «سليمان بن دانوس» .

ومن الطبعى فى ظل هذه الفتن الدائمة ألا يتمكن الأمير «عبدالله» من القيام بغارات ضد النصارى بسبب انشغاله بمحاربة الثائرين والمتمردين ، ولم يقد النصارى من جانبهم بأية محاولة ضد الأراضى الإسلامية غير أن ملك ليون (جلبقية) حاول إشعال الفتنة بين المسلمين وتشجيع الثوار وعلى رأسهم «ابن حفصون» على العمل

ضد حكومة قرطبة .

ومن الحوادث البارزة فى زمن الأمير «عبدالله» فتح جزر «البليار» أو الجزائر الشرقية ، ومن المعروف أن «عبدالرحمن الأوسط» كان قد أرسل حملة إلى «ميورقة» فلما كانت سنة (٢٩٠هـ = ٩٠٣م) سارت إليها قوة بحرية من المجاهدين يقودها «عصام الخولانى» ، وقامت بمحاصرتها حتى تم فتحها ، وتولى القائد إمارتها ، ومنذ ذلك الحين وهى جزء من الدولة الإسلامية .

وكان من الطبعى أيضاً ألا يتسع عهد الأمير «عبدالله» للأمور الإنشائية ولا يذكر له فى هذا المجال إلى «السباط» الموصل بين القصر والمسجد الجامع وهو ممر مسقوف مبنى فوق عقد كبير يفضى من القصر إلى الجامع ويتصل به قريباً من المحراب .

كان الأمير «عبدالله» عالماً أديباً شاعراً فصيحاً يتصف بالتواضع والجلود والبر بالفقراء ، حريصاً على رفع الظلم والتخفيف من معاناة الشعب ، وقد خصص يوماً من كل أسبوع للفقراء ، كما أقام باباً حديدياً أسماه «باب العدل» تقدم عنده الشكاوى والنظلمات ، وكان صارماً عتقاً مع الطغاة ، فشاع العدل فى زمنه ، وقد أثر الاحتشام والتقشف فى حياته الخاصة .

وقد تولى الحجابة له «عبدالرحمن بن أمية بن شهيد» ، ثم «سعيد بن محمد بن السليم» ثم عزله ولم يول أحداً ، واكتفى بالوزراء والكتاب ، وبرز من بينهم بدر الحصى الصقلبي . وقد اعتمد - بالإضافة إلى العرب والبربر - على الموالى والفتيان ، وقدم الموالى الشاميين على البلديين كما فعل أبوه .

وقد جرى حادث مؤسف داخل الأسرة الأموية يتمثل فى قتل الأمير «عبدالله» لولده «محمد» لاتهامه بالتواطؤ مع الثوار لكنه ندم على ذلك ، وتحول ندمه ، إلى عطف وير بطفل للقتيل لم يكن قد تجاوز عمره أسابيع ثلاثة عند مقتل أبيه فعنى بتربيته وتعليمه وجعله موضع سره ، وشاء الله أن يتولى هذا الطفل أمر الأندلس بعد جده ويصبح أعظم حكامها على الإطلاق .

وللأمير أشعار جيدة خاصة فى الغزل والزهد ، وكان يقرب الشعراء ويؤثر مجالسهم ومجالس العلماء ، ويأتى على رأس شعرائه «ابن عبدربه» وغيره ، وبقي «ابن مخلد» على رأس الفقهاء وأصحاب رأى الذين كان الأمير عبدالله يستشيرهم ويستأنس برأيهم .

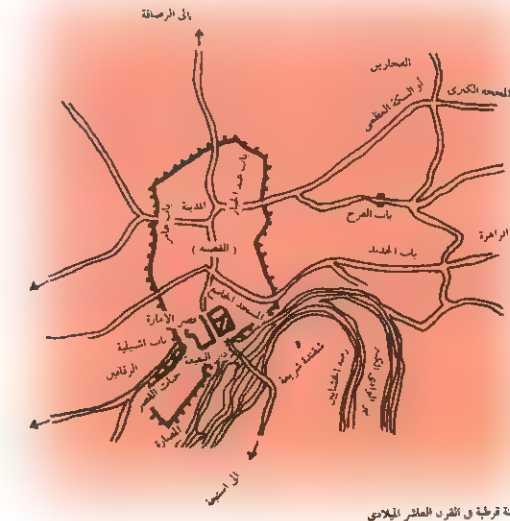
وقد توفى الأمير «عبدالله» فى (أول ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ = ٩١٢م) .

عبد الرحمن الناصر

العصر الذهبي لبنى أمية في الأندلس

[٣٠٠ - ٣٥٠ هـ = ٩١٢ - ٩٦١ م]

بدأ «عبد الرحمن» حكمه في (ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ = أكتوبر ٩١٢ م) بعد أن بايعه الجميع بنفس راضية في المجلس الكامل بقصر قرطبة مع وجود كثير من أعمامه، لكن «عبد الرحمن» اكتسب محبة الناس بحسن أخلاقه وتوسطه بين الأمراء



مدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي

وأهل الدولة وبين جده فنال محبتهم وولاءهم ، وكان عليه أن ينهض بمهمة ثقيلة ، فقد تعرضت الإمارة للثورات من كل ناحية حتى أصبحت لا يحسد عليها صاحبها ، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت أعمام «عبد الرحمن» ينصرفون عن منافسته ، لشعورهم بعظم المسؤولية التي تنتظر من يتولى الإمارة .

وقد أثبت هذا الشاب أنه يمكن إعادة بناء دولة ضعف بنيانها بالخلق المتين وحسن التدبير غير أنه لا ينبغي نسيان فضل الأمير «عبد الله» ، فلولا إصراره على تحطيم قوى الثائرين - خاصة «ابن حفصون» - ولولا تديبره شئون الدولة بالقليل من المال ، ما استطاع «عبد الرحمن» أن يوحد البلاد وينهض بها ، وكذلك لا ينبغي نسيان فضل البيوت العربية التي وقفت إلى جانب الإمارة تعاونها وتشترك معها في مواجهة المشاكل بأنواعها كافة .

* عبد الرحمن والأوضاع الداخلية :

أدرك عبد الرحمن أنه لا بد من

مواجهة الكفاح ضده وعدم تمكينه من تحقيق هدفه ، فبدأ بإرسال جيش بعد أسابيع قليلة من ولايته إلى قلعة «رباح» شمالي قرطبة لمواجهة ثائر من زعماء البربر يدعى «الفتح بن موسى بن ذى النون» وتمكن من هزيمته ، كما هزمت الحملة نفسها بعض المتحالفين معه ، وكان لهذا الانتصار في مطلع ولاية «عبد الرحمن» أثره في إرهاب الثائرين .

ثم أرسل «عبد الرحمن» جيشاً في (جمادى الأولى سنة ٣٠٠ هـ = ديسمبر ٩١٢ م) أعاد مدينة «استجة» التي كان «ابن حفصون» قد ضمها

إليه ، وقام القائد بهدم أسوارها وهدم قنطرتها ، وانقطع رجاء أهلها في القيام بثورة ، بعد ذلك جهز «عبد الرحمن» جيشاً ضخماً أنفق زمناً طويلاً في إعداداته واختار فرسانه بنفسه وزوده بكل ما يحتاج إليه ، وخرج على رأسه في (شعبان سنة ٣٠٠ هـ = مارس ٩١٣ م) ، واتجه أولاً إلى الجنوب الشرقي حيث انضم إليه أحد المخلصين للإمارة ، ثم مضى في طريق «جيان» ، وأرسل بعض قواته إلى مالقة ، وأمنها ، وهناك عسكر في قلب المنطقة التي ظن «ابن حفصون» أنها معقله ، وهنا رغب عدد من الثائرين في الاستسلام فمنحهم «عبد الرحمن»

الأمان ، ثم استولى على وادى أسن ، وحصن المتلون ، وأسر عدداً من حلفاء «ابن حفصون» في ولاية «غرناطة» واستولى على كل ما كان بيده في ولاية «جيان» ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى ساحل البحر ، ومازال عبد الرحمن يجول في تلك الأنحاء ويستولى على حصونها المهمة واحداً تلو الآخر حتى قضى على عناصر الثورة بها وبلغ عدد هذه الحصون نحو سبعين حصناً ، ثم عاد إلى قرطبة أيام عيد الأضحى بعد غيام دام نحو ثلاثة أشهر .

ثم أرسل الأمير حملة حاصرت «إشبيلية» وهدمت أسوارها سنة (٣٠١ هـ = ٩١٣ م) وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين في هذه القاعدة المهمة التي كان «ابن حفصون» يتعاون مع الثائرين بها ، ورأى الأمير أنه إذا حرمه من هؤلاء الحلفاء ، فإنه سيستسلم من تلقاء نفسه .

وفي (شوال من عام ٣٠١ هـ = مايو ٩١٤ م) ، سار «عبد الرحمن» إلى جبال «رنده» التي بها المعقل الرئيسي لابن حفصون - وكان قد بسط نفوذه عليها ثانية - واستولى الأمير على عدد من الحصون في الطريق ؛ حيث بدأ بمحاصرة قلعة «طرش» - شرقى مالقة - ثم سار إلى حصون «ريه» يفتحها الواحد

وراء الآخر ، والتقت قواته مع «ابن حفصون» وتعرض الثائر وحلفاؤه لهزيمة مريرة اضطر إلى الارتداد ناحية الغرب ، واستولى «عبد الرحمن» على سفن كانت تحمل له زاداً قادمًا من بلاد المغرب ثم توجه إلى الجزيرة الخضراء واقتحم حصونها ، ثم سار منها إلى «شدونة» ثم «قرونة» ورجع بعد ذلك إلى «قرطبة» بعد أن ضيق الخناق على «ابن حفصون» .

وقد ظن «ابن حفصون» أنه إذا ارتد إلى النصرانية ، فإن ذلك يكسبه ولاء طائفة المستعربين في الأندلس ، لكن هذا الارتداد أضره فانصرف عنه كثير من المسلمين والنصارى ، بل إن أبناء أنفسهم - باستثناء ولد له وبت - لم يوافقوا على التنصير ، واضطر ابن حفصون إلى أن يبعث برسالة إلى «عبد الرحمن الناصر» يطلب الصلح والأمان وقد وافق الناصر على الفكرة مع الحذر من مكر الثائر وغدره ، واتصل بأكابر أعوانه ومنحهم الأمان ، وتمت كتابة شروط الصلح ، وبمقتضاها دخل مائة واثنا وستون حصناً في طاعة الناصر ، وقد سرَّ كلا الطرفين بهذا الصلح ، وتلقى الناصر هدية قيمة من ابن حفصون بهذه المناسبة وكافأه عنها بأضعافها .

وفي شهر (ربيع الأول سنة ٢٠٦ هـ = أغسطس ٩١٨ م) مات «عمر بن حفصون» عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً بعد أن قاد أكبر ثورة قام بها المولدون ضد الإدارة الأموية في غرب الأندلس كله ، وتنفسست الحكومة الأموية بوفاته الصعداء بعد أن كان شاغلها الشاغل طوال ثلاثين عاماً .

وقد سار «عبد الرحمن» بنفسه إلى مواطن ثورة «ابن حفصون» وقضى على جيوب المقاومة بها وطهرها من آثاره ، وهدم الكنائس وأقام المساجد وصلى في مسجدها الجامع واستولى على كل معقلها وحصونها ، وأعدم ابنة لابن حفصون لإصرارها على الارتداد إلى النصرانية ، وانتهى بذلك أمر تلك الثورة العتيقة تماماً .

وقد بالغت المصادر الأوربية في تصوير «عمر بن حفصون» ، وقدمته على أنه بطل قومي رمى إلى غاية نبيلة ، وهي تحرير وطنه من نير المتغلبين عليه ورده إلى ديانته النصرانية .

والحقيقة أن الرجل لم يكن أكثر من قاطع طريق وثائر عنيف ولم تكن تدفعه أغراض قومية أو نبيلة ، ولم تحمسه الشهامة أو العزة القومية ، بل إن كل ما قام به يتعارض مع الشرف والمروءة والشهامة .

أنفق عبدالرحمن الناصر بعد ذلك أربع سنوات في القضاء على حركات الثوار في غربي الأندلس وجنوبها ولم يغفل لحظة عن مطاردة العصاة ، فحاصر «طليطلة» التي كانت معقلاً للثوار مدة عامين حين قام بالخروج فيها أحد زعماء المولدين حتى يئست واستسلمت وخرج بنفسه في أواخر (٣١٧هـ = ٩٢٩م) متوجهاً ناحية الغرب وأندلر العصاة وحاصر «بطلوس» وغيرها ومنع عنها كل مورد وضربها بشدة حتى اضطرت إلى التسليم ، وفعل الشيء نفسه في «باجة» وفي «أكشونة» قرب ساحل المحيط التي أتى الثائر بها معتذراً فقبل «الناصر» عذره .

وكما طارد الناصر العصاة في الغرب طاردهم أيضاً في شرق البلاد ، فبعث وزيره «ابن بسيل» لمقاتلة بنى ذى النون ، فقصد معقلهم «سنت بريه» واقتحمه وقتل رجاله ولم يتركه إلا بعد أن خضع له ، وفي سنة (٣١٧هـ = ٩٢٩م) افتتحت مدينة «شاطبة» بعد أن ترددت عليها الحملات العسكرية لمدة خمسة أعوام ، وبذلك أجمدت كل الثورات في أنحاء «الأندلس» كافة بعد أن بقيت نحو نصف قرن تستنفذ موارد البلاد وتمنعها من الجهاد ضد عدوها المترص بها في إسبانيا النصرانية .

* علاقة الناصر مع ملوك قشتالة وبنبلونة :

تعرضت الحدود الشمالية لقرطبة لأخطار جسيمة قبل أن يتولى «عبدالرحمن الناصر» ، وفي الأيام الأولى للناصر تمكن «ألفونسو الثالث» ملك «اشتورياس» من الاستيلاء على حصون «قلمرية» - في البرتغال حالياً - كما سيطر على حصون ليون واشترقة وأماية وسمورة منتهزاً فرصة انشغال الأمير في المشاكل والثورات الداخلية ، وقام بتسكين أعداد كبيرة من نصارى الأندلس المستعربين الذين هاجروا إلى الشمال واستقروا في الممالك النصرانية ، وعقب موت «ألفونسو» الكبير هذا استولى خليفته على حصن «أرماج» - الذي سيكون له شأن في الصراع بين الإسلام والنصرانية زمن الناصر - ومعنى ذلك أن مملكة «اشتورياس» توسعت وتضاعفت مساحتها وأصبحت تسمى مملكة ليون في الأيام الأولى لحكم الناصر ، بل تجرأ بعض قواد النصارى ووصلوا إلى ضفاف نهر «الدويرو» .

وقد انتهز أمراء بنبلونة - عاصمة نبرة - وغيرها من الإمارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوبى جبال «ألبرت» الفرصة ، وتمكنوا بمعاونة أصحاب الشجر الأعلى الأندلسى من تهديد المعاقل

الإسلامية في «تطيلة» وغيرها ، ونجح ملك قشتالة الجديد في مد حدود دولته لتشمل أراضي قشتالة الجديدة ، التي كانت أراضي إسلامية بها عدد قليل من المسلمين في ذلك الوقت ، كذلك أمكن لإمارة «قطلونية» التي تمكن ملوك الإفرنجية من إنشائها في عهد «عبدالرحمن الداخل» ، أن تتوسع أيضاً على حساب أراضي المسلمين .

وهكذا كان على عبدالرحمن الناصر عند توليه أن يواجه موقفاً بالغ الخطورة على حدوده الشمالية من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلسى .

* راميرو الثانى ملك ليون :

تولى «راميرو الثانى» الحكم في «ليون» في السنة نفسها التي تولى فيها «الناصر» ، وكان «راميرو الثانى» ملكاً طموحاً دائب الحركة ، ولهذا بدأ في العام الثانى لحكمه يهاجم أراضي المسلمين ، ووصل إلى «يابرة» - في البرتغال الحالية - على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين ألفاً وتصدى له عامل البلدة المسلم ، ولكنه هُزم وتمكن النصارى من دخول البلد وارتكبوا مذبحة ضد أهلها وأسروا أربعة آلاف ، فيهم عدد من النساء والأطفال ، وقد خشى عمال البلاد من مهاجمة هذا الملك لبلادهم ، فحاصروها وأحاطوها بالأسوار الحجرية المتينة ، ومع ذلك استطاع ملك ليون

مهاجمة مدينة «ماردة» ونهب أراضيها ودخل بعض حصونها وقتل فيها ألوف المسلمين ، وأنشأ هناك كنيسة تسمى كنيسة القديسة «ماريا الليونية» .

وكان «عبدالرحمن» يؤثر في أول الأمر غض الطرف عن محاربة النصارى إلى أن يتمكن من تطهير الأندلس من الثائرين ، لكن هذا التخريب والفساد والعبث من جانبهم جعل الناصر يتخلى عن خطته ، فبعث بجيش قوى سنة (٣٠٤هـ = ٩١٦م) التقى بجموع النصارى وهزمهم في عدة مواقع وعاد محملاً بالغنائم وفي العام التالى ضج المسلمون وطلبوا من الأمير إنقاذهم ، فأرسل إليهم قوات يتزعمها «أبو العباس أحمد ابن محمد بن أبى عبدة» قائده الكبير ، وقد استعد له ملك النصارى وجهاز أحسن مألديه من عدة وسلاح .

والتقى الفريقان بالقرب من بلدة «أرماج» وانهزم المسلمون وقتل قائدهم وتتبع النصارى فلولهم لمسافات بعيدة ، وكانت تلك نهاية «أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى عبدة» القائد المغوار صاحب الفضل في المحافظة على بقاء الإمارة الأموية طوال فترة حكم الأمير «عبدالله» ، وقد قام ملك النصارى بتعليق رأس هذا القائد العظيم على سور البلدة المذكورة ويجواره خنزير برى نكابة به .

هنا أدرك «عبدالرحمن» أن الأمر جد خطير وبخاصة بعد تحالف ملك ليون مع ملك نبرة ، وسارت قواتهما معاً تريد الاستيلاء على مدينة «طليطلة» غربى «طليطلة» وفي الوقت نفسه توجهت قوات تابعة لملك «نبرة» لمهاجمة أراضى «بنى قسى» أصحاب «طليطلة» ، وأحرقت الزروع وعاثت فساداً ، وأحرقت بعض المساجد ، ولهذا أعد عبدالرحمن جيشاً ولّى قيادته حاجبه «بدر بن أحمد» الذى احتشد له النصارى من كل ناحية ، وتقدم المسلمون كالسيل إلى حدود ليون وهزموا النصارى هزيمة ساحقة في موقعتين ، ومع ذلك استمر النصارى يغيرون على الأراضي الإسلامية ، وجرت حروب كانت سجالات .

صمم عبدالرحمن على أن يخرج بنفسه لمقاتلة النصارى ، فخرج من قرطبة في (١٣ من المحرم سنة ٣٠٨هـ = أوائل يونيو سنة ٩٢٠م) فى جيش ضخم ، وانضم إليه كثير من أهل الثغور ، وقد اخترق أراضي الشجر الأوسط من طليطلة شمالاً واتجه إلى طريق ألبه والقلاع «قشتالة» ، ووصل إلى «قلونية» ونسف وخرب دون أن يعترضه النصارى لأن ملكى ليون ونبرة كانا ينتظران بجموعهما فى الشمال .

وقد عرج «عبدالرحمن» على «تطيلة» واستولى على حصون مهمة بها ، ثم عبر نهر «إبرة» حيث وجد الملكين فى كامل قواتهما ، وقد أرادا استدراج الناصر إلى شعب الجبال ، لكنه نجح فى سحبهما إلى السهل المنبسط وعسكر غربى «بنبلونة» عند بلدة تسمى «خونكيرا» ، وعندما انحدر النصارى من الجبل إلى السهل ، أوسعهم المسلمون قتلاً وأسراً وفتكوا بالعديد من أساقفتهم وزعمائهم ومزقوهم ، ثم هدم عبدالرحمن حصونهم ، وأصلح حصون المسلمين بهذه النواحي ، وجرت هذه الموقعة فى (٦ من ربيع الأول سنة ٣٠٨هـ = ٢٦ من يوليو سنة ٩٢٠م) ، وقد استغرقت غزوة الناصر هذه ثلاثة أشهر ، وكانت أول غزوة له ضد ملوك النصارى .

لم ترتدع قوى النصرانية رغم ما تعرضوا له من هزائم وأخذوا يهاجمون الأراضي الإسلامية ، واستولوا على بعضها ، لذلك خرج «عبدالرحمن» إليهم مرة أخرى فى (المحرم سنة ٣١٢هـ = ١٧ من إبريل ٩٢٤م) وسلك اتجاه الشرق مخترقاً كورة تدمير فبلنسية ، ثم دخل إلى طرطوشة فسرقسطة ثم تطيلة ، ثم دخل أراضي «نبرة» حيث استولى على كثير من الحصون وهدمها ، ثم قصد بعد ذلك بنبلونة - عاصمة مملكة نبرة - ودمرها وهزم ملكها ، وأنهى

مقاومته تمامًا وفي طريق عودته إلى «قرطبة» عرج على «موسى بن ذى النون» وقبل طاعته وقد استغرقت هذه الغزوة أربعة أشهر وعرفت بغزوة «بنبلونة».

مات ملك ليون وحدثت مشاكل داخلية انتهت بتولية ملك جديد عمل على توسيع الفتنة بين المسلمين وكانت «طليطلة» آنئذ تقوم بثورة معارضة، فقام الملك النصراني بتشجيع الثوار، وبدأ «عبدالرحمن» من ناحية يرسل العلماء لحث الثوار على الطاعة، فلم يستجب أحد مطمئنين إلى مخالفة ملك النصارى لهم، لذلك اضطر الناصر إلى أن يخرج إلى الثائرين في قوات ضخمة في (ربيع الثاني سنة ٣١٨هـ = مايو ٩٣٠م)، وبعد حصار شديد غادر عبدالرحمن المدينة وترك على حصارها بعض قواته، ثم عاد إليها بعد عامين فسار ملك ليون لإنقاذ «طليطلة» واستولى في طريقه على حصن مجريط (مدريد) لكن المسلمين استردوه، ففر ملك ليون واضطر أهل «طليطلة» إلى التسليم وانتهت بذلك ثورة من أخطر الثورات التي واجهها الناصر.

وواصل «عبدالرحمن» ضرباته في بلاد الشمال، ولم يجد ملوك النصارى مفرا من طلب الصلح، وأصبحوا من أتباع الناصر،

وظلوا يخطبون وده ويطلبون العلاج في عاصمته.

ولكن ملك ليون آله أن يخضع ملوك النصارى لأمير قرطبة، فحرضهم على حربه وجمع جيشًا كبيرًا يواجه به المسلمين فاستعد له عبدالرحمن استعدادًا كبيرًا؛ خاصة وقد تمكن الملك النصراني من الاستيلاء على حصن مجريط وهدد طليطلة سنة (٣٢٠هـ = ٩٣٢م) وقصد الجيش النصارى عن طريق وادي الحجارة، ثم سار إلى سرقسطة وبعث بقوات إلى «تطيلة» و«طرطوشة» وتحول إلى أراضى «نبرة» ليتلقى من ملكتها رسالة تعبر عن رغبتها في السلم والمصالحة فوافق الأمير وأقر ابنها ملكًا على

بلاد «البشكنس» ثم سار إلى أراضى «ألبة والقلاع» وخرب ونسف وعاث في أراضى ليون، فاجتمع له النصارى ودارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون ووصل إلى مقربة من ليون، ثم ارتدت قواتهم شرقًا وأخذت تعيث في أراضى قشتالة وخربت عاصمتها «برغش» ثم عادت القوات الإسلامية إلى قرطبة بعد أربعة أشهر.

وفى سنة (٣٢٣هـ = ٩٣٥م) خرج أسطول الناصر في أربعين سفينة من ثغر ألمرية إلى جزيرة ميورقة، ومنها إلى شواطئ الثغور الفرنجية حيث حقق انتصارات كبيرة، وتوجه بعدها إلى برشلونة.

فاجتمع الفرنج لمقاتلته، ودارت بينه وبينهم مجتمعين معركة انتصر فيها الأسطول الإسلامي، ثم رجع إلى طرطوشة حيث صدرت الأوامر للقائد بالتوجه إلى سبته وطنجة للتعامل مع الثائرين هناك، فظل يتردد بين مراسى العدو المغربية حتى شتاء العام التالي، ثم رجع إلى مرسية في (صفر سنة ٣٢٤هـ = ديسمبر ٩٣٥م).

كان «عبدالرحمن» قد عقد صلحًا مع ملك ليون بناءً على رغبته، لكن النصارى من البشكنس تحركوا واحتلوا بعض الحصون، وفي الوقت نفسه ظهرت بوادر فتنة خطيرة في سرقسطة، لأن أصحابها التجييين

لم يكونوا على وفاق مع حكومة قرطبة، وما كانت تعجبهم سياسة «عبدالرحمن» التي تعمل على إخضاع الزعماء المحليين بالإضافة إلى أن وجودهم بين الممالك النصرانية أعطاهم فرصة التآمر والخروج على سلطان الحكومة المركزية، وقد رفض زعيمهم بالفعل أن يشترك مع الناصر في حملته الأخيرة ضد النصارى، بل وتحالف مع ملك ليون ضد المسلمين، وانضم إليهما البشكنس، وبذلك وقف الشمال كله متحالفًا ضد عبدالرحمن.

بعث الناصر بعض القوات التي تعاملت مع هؤلاء في بعض

المواقع، وتمكنت حامية مجريط - أهم قلاع الثغر الأدنى - من رد هجوم ملك «ليون» عليها، ثم خرج عبدالرحمن بنفسه على رأس جيش ضخم في (رجب سنة ٣٢٥هـ = مايو ٩٣٧م) فسار أولاً إلى «طليطلة» لتأمين أهلها وإرهاب النصارى، وسلمت له «وشقة» و«طليبة» غربي «طليطلة».

بعد ذلك توجه الناصر إلى الثغر الأعلى عن طريق وادي الحجارة، وقصد قلعة أيوب التي يعتصم بها زعيم التجييين، وعرض عبدالرحمن عليه الطاعة فرفض، واضطر إلى أن يدخل معه معركة عنيفة انهزم فيها الثائر وطلب الأمان فوافق الناصر على تأمينه، وكان سقوط قلعة أيوب هذه أول صدع خطير في ثورة بني تميم.

ثم اتجه الناصر إلى ألبة والقلاع ففتح من حصونها سبعة وثلاثين حصنًا، ثم ذهب إلى بنبلونة - عاصمة نبرة - لتأديب الناكثين.

وأخيرًا قبل اعتذار ملكتها وتوجه إلى تطيلة ومنها إلى سرقسطة وقام ببعض العمليات الناجحة برا وبحراً ضد ملك ليون وحلفائه، واستمر يحاصر سرقسطة حتى طلب زعيم بني تميم الصلح فوافق الناصر،



وبذلك سقطت سرقسطة وحصونها المهمة في يد الناصر ، وانهارت أخطر ثورة واجهها الناصر ، وهى ثورة التجيبين الذين كانت بلادهم مركزاً يجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة سواء أكانوا من الثوار أم من زعماء النصارى .

ويلاحظ أن الناصر كان حريصاً على أن يعفو عن الثوار وأن يحسن إليهم ويضمهم إلى جيشه ، وبهذه السياسة الرشيدة استطاع أن يستفيد من كل القوى المناوئة له عندما أحسن إليهم ، وقد دخل الأمير الأندلسى سرقسطة وأرسل منها ثلاثة جيوش توغلت فى أراضي ألبه والقلاع وهزمت النصارى فى عدة مواقع ، ثم عادت جميعاً إلى قرطبة فى (١٨ من ربيع الأول ٣٢٦هـ = أواخر يناير ٩٣٨م) بعد ثمانية أشهر قضوها فى العمليات الناجحة ، وأراد الناصر أن يكرم زعيم «بنى تجيب» فردّه إلى «سرقسطة» وأعادّه إلى مكانه وولاه كل مناصبه السابقة .

مزق «عبدالرحمن الناصر» التحالف النصرانى الخطر وأخضع الشمال الشرقى كله لسيطرته ولم يبق إلا ملك ليون بؤرة الفساد الحقيقى فى هذه المناطق ، وقد تم تجهيز جيش ضخم بلغت قواته نحو مائة ألف جندى ، وولى الناصر قيادته «نجدة بن حسين الصقلبي» ،

وكان الصقلابة قد سيطروا فى هذه الآونة على كل مناصب القصر والقيادة ، وقد أثر ذلك على نفوس العرب وكان سبباً فى تدهور قوى الجيش المعنوية .

وفى صيف عام (٣٢٧هـ = ٩٣٩م) سار الناصر وعبر نهر التاجه عند طليطلة ثم عبر نهر «دوير» متجهاً نحو قلعة «شنت منكش» حيث كان ملك ليون قد عسكر مستعداً وحالفه «أمية بن إسحاق» وملكة نبرة التى نقضت عهداً ، وبذلك اتحدت قوى النصرانية من جديد ووقفت صفاً واحداً فى مواجهة المسلمين .

وجرت بين الطرفين موقعة تعد من كوارث التاريخ الأندلسى ، عرفت بموقعة الخندق ، وتفيض المصادر الإسبانية فى وصف ما حدث ، بينما تقدمها الرواية الإسلامية فى صورة مقتضبة ، وقد جرت وقائعها على باب قلعة «شنت منكش» (سيمانقة) وكانت الحرب سجالاً ، ثم انكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله وردهم العدو إلى خندق عميق نسبت الموقعة إليه ، وقد تساقط فيه المسلمون حتى امتلأ بهم عن آخره وانكشف الناصر واستولى العدو على محلاته وما فيها من عدة ومتاع وفقد مصحفه الشريف ودرعه .

وكان للخونة وعلى رأسهم «فرتون بن محمد الطويل» أثره فى الهزيمة ، وقد أعدمه الناصر جزاءً وفاقاً لخيانته ، كما كان لتولية قائد صقلبي أثره فى امتعاض العرب وتأثيره على روحهم المعنوية أثناء القتال ، وقد قتل ذلك القائد فى المعركة ، وأسر من كبار المسلمين «محمد بن هاشم التجيبى» وبقي فى أسر ملك ليون مدة عامين حتى اقتداه الناصر بمبلغ كبير .

وهذه خاتمة معارك الناصر الحربية فلم يغز بعدها بنفسه واقتصر تقليد شئون الثغر الأعلى على أكابر رجاله ممن ورثوا الصلابة والبأس عن الأجداد ، من أمثال آل تجيب وآل ذى النون وآل زروال وآل الطويل وآل رزين وغيرهم ، وكان الناصر يزورهم كل عام ويزودهم بالعدد والسلاح ، وقد استأمن «أمية ابن إسحاق» الذى تحالف مع النصارى فوافق الناصر على تأمينه عملاً بسياسته فى اصطناع الخصوم الأقوياء .

أرسل ملك ليون يطلب الصلح مع الناصر فاستجاب له الأخير ، لكنه كان صلحاً قصير الأمد كالعادة ، كما عقد الناصر صلحاً مع ملك برشلونة وغيره ، لكن ملك ليون لم يحترم الصلح وهاجم الأراضي الإسلامية ، فاضطر المسلمون إلى غزو مملكة ليون سنة (٣٢٩هـ = ٩٤١م) ، وتوجيه بعض الحملات إليها وإلى جليقة .

وفى سنة (٣٣٥هـ = ٩٤٦م) جدد الناصر مدينة سالم ، أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية إلى حدود ليون ، ونقل قاعدة الثغر الأعلى من طليطلة إليه ، وولّى عليها قائده «غالب الناصرى» الذى كان له شأن فى تاريخ الأندلس زمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بعده وقامت قوات عبدالرحمن بمعارك وغزوات ناجحة حتى وصلت إلى شاطئ المحيط الأطلسى ، الشيء الذى جعل ملك ليون يطلب الصلح مع الناصر إيماناً بأنه لا قبل له به .

عبدالرحمن الثالث والبلاد المغربية :

عندما تولى عبدالرحمن الناصر ، كانت الدولة الفاطمية قد قامت فى بلاد المغرب منذ أربع

سنوات فى (٢٩٦هـ = ٩٠٩م) ، وامتد نفوذها بسرعة حتى وصل إلى سبتة ، وأصبحت تهدد الشواطئ الأندلسية وتمثل خطراً دينياً وسياسياً عليها ، ومن الطبيعى أن يزعج هذا الأمر الأمويين فى الأندلس ؛ لأن المغرب قاعدة من يريد الوصول إلى الأندلس . كما أنه يمد الثوار بها بحاجاتهم ويشجعهم على التآمر ضد الإدارة الأموية .

كان على الناصر أن يواجه هذه المشكلة قبل أن يستفحل خطرها . ولهذا بعث سنة (٣١٩هـ = ٩٣١م) أسطولاً مكوناً من (١٢٠) سفينة وسبعة آلاف رجل إلى سبتة انضم إليهم بعض المتطوعة فى الطريق ، وقد تمكن هذا الأسطول من السيطرة على سبتة وانتزعها من

البربر حلفاء الفاطميين ، ثم حاصر الأسطول بعد ذلك طنجة وضيق عليها حتى استسلمت وخضعت للناصر وغادرها بقية الأدارسة ، وبادر زعماء البربر إلى إعلان الطاعة للناصر وامتدت دعوته حتى فاس ، وأطاعه «موسى بن أبى العافية» زعيم مكناسة ، وأمه الناصر بالجنود والسفن حتى هزم الفاطميين ووقف سداً منيعاً أمام محاولاتهم فى المغرب واستمرت جيوش عبدالرحمن تعبر من الأندلس لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من البربر والأدارسة حتى استقر له الأمر ودعى له على منابر المغرب سنة (٣٢٢هـ = ٩٤٤م) .

وقد قويت الأساطيل الفاطمية فى عهد الخليفة «المعز لدين الله» ، وبدأت تجوب شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ووصلت إلى المرية وأحرقت سفنها وعاثت فيها سنة (٣٤٤هـ = ٩٥٥م) ، فرد الخليفة الناصر بإرسال قوة بحرية عاثت فى تونس ، وأمر بلعن الفاطميين والشيعة على منابر الأندلس ، وفى سنة (٣٤٧هـ = ٩٥٨م) أرسل الناصر أسطولاً ثانية إلى إفريقية رداً على الحملة الفاطمية التى قادها «جوه الصقلبي» إلى عدوة المغرب ، التى تمكنت من الوصول إلى فاس ، وأرسل فى الوقت نفسه حملة أندلسية عن طريق سبتة إلى المغرب بقيت هناك حتى رجع الفاطميون .





آثار مدينة الزهراء بالأندلس

وكانت سياسة الناصر مع الفاطميين تتجنب الدخول في صراع صريح معهم ؛ لأن هذا يضعف جبهته الشمالية أمام النصاري ، ولهذا وجدناه يكتفى بإرسال السلاح والعتاد والمعونات المالية الكبيرة إلى «موسى بن أبى العافية» و«مصالة بن حبوس» وأمثالهما لإلحاق الهزيمة بأعوان الفاطميين ، ثم اكتفى باحتلال سبتة وطنجة ومنهما زود أعوانه في المغرب بحاجتهم ليثبتوا أمام الشيعة ، وربما لجأ إلى معاونة الخارجيين على الفاطميين من غير الأدارسة وهو على كل حال لم يلق بخيرة جنده وقواده في الصراع المغربي ، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه ابنه الحكم المستنصر بعد ذلك فأنز على جبهته الشمالية وأضعفها ولم يتمكن من الخروج بنتيجة حاسمة .

وسماتها وإذا كان هو قد نهض بالدولة ووطد سلطان بنى أمية في كل الأندلس فلماذا لا يكون من حقه لقب خليفة؟ لذلك أصدر أمراً بذلك في يوم الجمعة مستهل (ذى الحجة سنة ٣١٦هـ = أوائل ٩٢٩م) وأصبح عبدالرحمن الثالث يلقب بالخليفة أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وقد أرسلت نسخ من هذا الإعلان إلى إفريقية والمغرب وبذلك أصبحت الخلافة الأموية مساوية للخلافة العباسية ، ويناظر بها رعاية شئون المسلمين ، وتولية أمر الإسلام في الجناح الغربى من العالم الإسلامى . وقد استتبع ذلك تغييراً كبيراً في شكل الإمارة القرطبية ونظامها؛



عملة الناصر لدين الله أمير المؤمنين

إعلان الخلافة الأموية في قرطبة

عندما تولى «عبدالرحمن الداخل» أمر بعدم الدعاء لبنى العباس ولم يتخذ لقب الخلافة مكتفياً بالإمارة ، وسار بنوه على نهجه ، فلما تولى الناصر ، وجد أن هناك دولة فاطمية قامت في بلاد الشمال الإفريقى ، ووصل نفوذها إلى شواطئ المغرب الأقصى، وقد اتخذ حكامها لأنفسهم لقب الخلافة

* إنشاء مدينة الزهراء وزيادة المسجد الجامع :

كثرت سكان قرطبة في عهد الناصر ووصلت مبانيها إلى تل الرصافة الذى يقوم عليه قصر الرصافة ، ولم تعد قصور العاصمة تليق بالمكانة العظيمة التى ارتفعت إليها الخلافة ، كذلك ضاقت أسواق البلد وطرقاتها ، وأصبح من العسير على جيوش الدولة وموأكب السفراء المستمرة أن تسير في شوارع المدينة دون أن تضايق الناس .

الخلافة وسلوكه بما يتفق مع مكارم الأخلاق ومبادئ الإسلام ، وبهذه الأخلاق والوفاء استطاع الناصر بعد عشر سنوات من حكمه أن يعيد النظام والهدوء والوحدة والأمان إلى دولته الواسعة، كما منح أمانات لبيوتات الثغر الأعلى من أمثال: بنى هاشم وبنى قسى وبنى الطويل واستفاد بهم وبما تميزوا به من شجاعة في حروبه ، ونجح في تحويل ملوك إسبانيا النصرانية إلى أتباع له أو حلفاء .

رعية مطيعة تأتمر بأمر الخليفة خاصة بعد الانتصارات التى حققها على المستويين الداخلى والخارجى، وكان يلقي وزراءه في مجلس فخم يعد كل شئ فيه بنظام مرتب . ورغم ميل الناصر إلى الاستبداد فإنه لم يعرف عنه أنه كان ظالماً ، ولم تذكر المصادر أنه قتل وزيراً أو صادر مالا أو اعتدى على حق لأحد أو بالغ في عقوبة، وربما كان الوحيد بين خلفاء المسلمين بالأندلس فيما يتعلق بتصرفاته في

* الزيادة في المسجد الجامع :

أمر الناصر بإضافة زيادة ثالثة إلى المسجد الجامع في قرطبة سنة (٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) ، وقد ضاعفت هذه الزيادة حجم المسجد في الاتجاه الجنوبي وقد تم بناء الزيادة على طراز بقية المسجد نفسه من حيث الأقواس ومواد البناء .

وعُد محراب هذه الزيادة في المسجد آية من آيات الفن الأندلسي ذلك أنه ليس محراباً بل غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة منه في هيئة محارة ، ووسط هذا المحراب كرسى يوضع عليه المصحف الشريف يستخدمه القارئ في تلاوة القرآن الكريم قبل الصلوات .



وقد بلغت إيرادات الأندلس نحو ٥,٥ مليون دينار من الكور والقرى ومن الأسواق ونحوها ٧٦٥ ألف دينار قسمت ثلاثاً : ثلثاً للجنود ، وثلثاً للبناء ، وثلثاً يدخر للطوارئ .

فيستعملان لموظفي القصر وكتاب الخليفة ، وهذا المجلس يبدو للرائي من بعيد عندما يهل الإنسان على مدينة الزهراء ، وقد أراد «عبدالرحمن» على هذه الصورة ؛ ليتمكن من رؤية السفراء والملوك وهم مقبلون من بعد ، ثم وهم صاعدون إلى القصر ، وقد سميت الرحبة التي أقيم فيها البهو الرئيسي باسم «السطح الممرد» ، وجعل أمام بهو الاستقبال حوض للسباحة ، مصنوع من الرخام حفر له في الأرض ، وزين بالتمائيل وقد تم جلبه من القسطنطينية وقد ضاعت معالم هذا القصر أثناء محنة الفتنة والصراع على الخلافة ويحاول علماء الآثار منذ سنة (١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م) العثور على شيء من معالم هذا القصر ، وإعادة إقامة بعض منشآته وخاصة بهو الاستقبال .

وبناء هذه المدينة والقصر يعكس رخاء الأندلس ونهضة الفن المعماري بها آنئذ ، ووصل ازدهار قرطبة إلى أعلى درجاته فوصل عدد دورها إلى ١١٣ ألف دار بلغ مجموع قاطنيها مليوناً ومائة وثلاثين ألفاً ، وما يدل على كثرة سكان العاصمة أن عدد الحمامات بها بلغ ثلاثمائة حمام ، وعدد مساجدها ثلاثة آلاف .

القصر) ويصعد درجات ، وإلى جانب هذا المصعد ذى الدرجات يوجد مصعد آخر بلا درج مخصص للخيل ، وعندما يصل الإنسان إلى المستوى الثاني يجد مساكن الجنود وأصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة ، كما وجدت هناك آثار المسجد الجامع لمدينة الزهراء ، وكل هذه البيوتات محاطة بالأشجار والخضرة ، وعندما ينتهي الإنسان من هذا المستوى يصعد مرة أخرى حتى يصل إلى سهل منبسط بنيت عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه بما في ذلك أماكن إقامة الحرس الخاص بالخليفة ، وما يلزم لهؤلاء من حمامات ومساجد ، بعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة فيواجه لأول صعوده البهو الكبير الذي أنشأه الناصر لاستقبال السفراء والملوك الأجانب ، وهو بهو فخيم يتكون من ثلاثة أقواس تفضي إلى قاعة فسيحة بها ثلاثة أبهاء ينتهي الأوسط بمجلس الناصر في صدره ، وهناك يجلس الخليفة فوق عرشه تحيط به مقاعد الأسرة المالكة كل حسب مرتبته ، وعلى الجانبين مقاعد للوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف موضوعة بصورة محكمة بحيث يختص كل مسئول بمقعده الذي لا يتغير ، فإذا ما نظر الناصر ووجد مقعداً خالياً عرف من تغيب ، أما البهوان الداخليان

ومن قرطاجنة إفريقية وتونس والشام ، وجلب لها ٤٣٢٤ سارية من الرخام واشتغل في بنائها يومياً عشرة آلاف رجل ، و ١٥٠٠ دابة ، واستخدمت من الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة في اليوم ، وقدرت النفقة على بنائها بـ ٣٠٠ ألف دينار سنوياً بخلاف ما أنفق في عهد الحكم ، وأقام الناصر لنفسه قصراً جديداً ، بنى فيه مجلساً ملوكياً أسماه قصر الخلاف ، جدرانه من رخام مزخرف بالذهب ، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب وأقام الخليفة في الجناح الشرقي المسمى بالمؤنس ، وزوده بأنفس التحف ووضع فيه الحوض المنقوش بماء الذهب المهدي إليه من قصر القسطنطينية .

وجدير بالذكر أنه تم التخطيط لمدينة «الزهراء» بحيث تكون مستقلة بذاتها ، وقد بنيت على مدرجات بحيث يرقى من يدخل المدينة من درجة إلى درجة ، وفي كل درجة يجد قسماً من أقسام المدينة ، ويدخل الإنسان إليها من أسفل الجبل عن طريق باب كبير يسمى باب الأقباء - جمع قبة - لأن هذا المدخل كانت تحيط به وتقوم فوقه قباب ، بعد ذلك يسير الإنسان مسافة طويلة في طريق مبلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى باب السدة (باب

وكان الناصر قد بنى إلى جانب «القصر الزاهر» قصراً جديداً سماه «دار الروضة» استدعى له المهندسين والبنائين من كل ناحية ، وأنشأ في ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة جلب لها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة ، ومع ذلك فقد كانت العاصمة تضيق بسكانها ولاتفي بحاجة ملك عظيم بلغه الناصر ، ووطده عن طريق سحق أعدائه في الداخل والخارج ؛ لهذا كله فكر في إقامة مدينة جديدة تضم قصوره وأماكن حاشيته ، وأخذ المهندسون في دراساتهم ووصلوا إلى إقامتها على سفح جبل العروس على بعد ستة كيلو مترات من العاصمة وتطل عليها من الناحية الجنوبية الغربية .

سميت تلك المدينة بالزهراء ، نسبة إلى إحدى نساء عبدالرحمن التي ماتت عن مال كثير وأوصت أن ينفق في افتكاك أسرى المسلمين ، لكن الناصر لم يجد أسرى فقرّر إنشاء المدينة بهذا المال وأطلق عليها اسم صاحبة ذلك المال .

بدأ العمل في المدينة الجديدة (أول المحرم ٣٢٥ هـ = نوفمبر ٩٣٦ م) ، وتولى الإشراف على بنائها «الحكم» ولي العهد ، وحشد لها أشهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ولاسيما القسطنطينية وبغداد ، وجلب لها الرخام بألوانه من «المرية» و«رية» ،



وكان «عبدالرحمن الناصر» قد هدم منارة المسجد القديمة سنة (٣٤٠هـ = ٩٥١م) ، وجعل له منارة تميزت بفخامتها وارتفاعها الشاهق، وكانت مربعة الواجهات، وله ١٤ شباكًا ، وسلمان للصعود والهبوط وفي قمتها ثلاث تفاحات كبيرات اثنتان من الذهب وواحدة من الفضة ، وقد أزال النصاري هذه المنارة وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالي ، ولاتزال اللوحة التي تشيد بجهود عبدالرحمن الناصر قائمة في مكانها عند الباب الرئيسي المسمى باب النخيل .

كذلك أقام عبدالرحمن ما يعرف بالمظلة في صحن المسجد ، وهي سقف متحرك يتكون من أعمدة من الخشب والحصر ، يستظل بها الناس أثناء الصلاة في زمن الصيف ، ثم ترفع بعد الصلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مزدانًا بأشجار النارج ، وتلك ظاهرة تنفرد بها صحنون مساجد الأندلس عن غيرها .

ولانتفج جهود الناصر عند هذا الحد ، وإنما يرجع إليه الفضل في إنشاء عدد كبير من المساجد في شمالي الأندلس وجنوبه كما أن إليه يرجع فضل تجديد قنطرة الوادي وقنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة .

وقد اهتم الناصر بالجيش وجمع له الجند من أنحاء المغرب والأندلس ، واستكثر من الأسلحة ، وأمدّه بمجموعة من أمهر القادة، وتولى القيادة بنفسه أحيانًا . كما عني بالأسطول واهتم بإصلاح وحداته ، وأنشأ به وحدات جديدة ، وكانت «المرية» هي مركز الأسطول الرئيسي وبها دار الصناعة ، وقد ضم أسطول الناصر (٢٠٠) سفينة بخلاف أسطول المغرب ، وكان لأسطول الناصر السيطرة على مياه إسبانيا الجنوبية الشرقية ، كما كان ينازع الفاطميين السيادة على غربى البحر

الأبيض المتوسط وعلى الرغم من الحروب فإن عصرالناصر كان عصر رخاء زاد فيه الدخل وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وكثرت أخماس الغنائم ، ويقال إن الناصر لما مات وجد في بيت ماله خمسة آلاف مليون درهم ، وترك في قصره عشرين مليونًا من الذهب . وفي سنة (٣١٦هـ = ٩٢٨م) أمر الناصر باتخاذ دار للسكة في قرطبة لضرب الدنانير والدراهم ، وبذل جهده في الاحتراس من الغش والتدليس فأصبحت دنانيره ودراهمه عيارًا محضًا ، وكان ضرب النقد معطلا قبله .

وبلغ الأمن ذروته في سائر البلاد أيام الناصر ، وترك ذلك آثارًا طيبة على مصادر الدخل وازدهرت العلوم والآداب ورخصت المعاش .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الدولة الأموية في الأندلس كانت تعتمد على اصطناع الموالى والصقالبة منذ عهد الداخل ، وذلك بسبب الظروف التي قامت فيها دولته، والثورات التي أثارها من نفسه من زعماء القبائل العربية، الشيء الذي جعله يرتاب في العرب ويصطنع البربر

والموالى، وفي عهد «الحكم الرضى» اشتد نفوذ الموالى والصقالبة في القصر والدولة وملا الممالك كل الأرجاء، ولما جاء الناصر استراب أيضًا في القبائل العربية فاستأثر بكل السلطات وجمع مقاليد الحكم في يده ، ولم يتردد في سحق كل من يقف في طريقه حتى لو كان أقرب الناس إليه، وكان يثق بالصقالبة خاصة ويوليهم ما يولى سواهم من المناصب الكبرى حتى اشتد نفوذهم، وكانت لهم السيطرة على كل شؤون الحكم والإدارة والجيش وكثير المال في أيديهم ، وقد وصل عددهم إلى نحو أربعة عشر ألفًا .

وقد بلغت السفارات والمراسلات والمعاهدات بين قرطبة وبين الدولة النصرانية أوجها في عهد الناصر ، وكان بلاط القسطنطينية من الساعين إلى توثيق الروابط مع حكومة الأندلس ، ووفدت رسله تحمل هدايا للخليفة، وأهم سفارة تلقاها الناصر هي سفارة إمبراطور ألمانيا زعيم النصرانية سنة (٣٤٤هـ = ٩٥٥م).

وكان الناصر أديبًا عالمًا يهوى الشعر وينظمه ويقرب إليه الأدباء ومن شعرائه ابن عبدربه صاحب العقد الفريد ، وشاعر الأمويين منذ عهد محمد بن عبدالرحمن الثاني،

وله أرجوزة تفيض في وصف الناصر وتعرض غزواته حتى سنة (٣٢٢هـ = ٩٣٤م) مرتبة على السنين .

وما من شك أن طول عمر عبدالرحمن الناصر ، وطول فترة حكمه قد ساعده على تحقيق ماوصل إليه وحققه من عظام ، واستحق أن يختم «دوزى» حديثه عنه بهذه الجملة : «الذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين ، لأجدر بأن يعتبر قريبًا ملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى» .

ويقول عنه ليفى بروفنسال - الباحث والمؤرخ الفرنسى المشهور- «إن عبدالرحمن الناصر يعتبر دون شك من أعظم ملوك أوربا كلها في العصور الوسطى» .

ويشير إليه توينبى - أشهر فلاسفة التاريخ في العصر الحديث- باعتباره مثال الحاكم المستنير الذى يتخطى عصره بملكاته وبمواهبه وأخلاقه ، وفهمه الدقيق لمسئولية الحاكم وقدرته على القيام بمسئوليته جميعًا .

وقد توفي الناصر في (الثانى من رمضان سنة ٣٥٠هـ = ١٥ أكتوبر ٩٦١م) ودفن في قرطبة، وتولى بعده ابنه «الحكم المستنير» .



ناعورة الوادي الكبير اقيمت مكان ناعورة قرطبة

خلافة الحكم بن عبد الرحمن الناصر

الملقب بالمستنصر

[٣ رمضان ٣٥٠هـ - ٢ صفر ٣٦٦هـ = ١٦ أكتوبر ٩٦١م - سبتمبر ٩٧٦م]

استهل الحكم عهده بالأمر بتوسيع المسجد الجامع بعد أن ضاق بالمصلين ، فأدخلت عليه زيادة من الناحية الشرقية من الجنوب إلى الشمال إلى أن بلغت الصحن وتضاعف بذلك حجم الجامع ، كما بنى الحكم محراب المسجد الثالث واستغرق



بناؤه لهذا الجزء أربعة أعوام ، وعملت له قبة زخرفت بالفسيفساء الذى جاء معظمه هدية من إمبراطور بيزنطة ، وأنشأ الحكم أيضاً قبة على الطراز البيزنطى ومقصورة وداراً للصدقة وأخرى للوعاظ وعمال المسجد ، وأنشأ للمسجد الجامع منبراً جديداً ، وزود المسجد بالماء بطريقة هندسية وأنفق على ذلك كثيراً ، وبهذا أكمل الحكم توسعة المسجد الجامع التى بدأها أبوه ولم يتمها ، وتعتبر هذه الزيادة تنويجاً لأعمال الناصر وابنه المستنصر من الناحية الحضارية.

وتشغل زيادة الحكم اليوم القسم الأوسط من الجامع والواقع بين الجناح القديم - جناح عبدالرحمن الداخل الذى زاد فيه عبدالرحمن الأوسط - وجناح المنصور بن أبى عامر ، وهى تشغل ثلث المسجد من الناحية الشرقية.

ويذكر للحكم أنه أصلح قطرة قرطبة الواقعة على نهر الوادى الكبير بعد أن وهنت وأشرف بنفسه على ذلك سنة (٣٦١هـ = ٩٧٢م).

يمتاز عصر الحكم بازدهار العلوم والآداب فيه بصورة غير مسبوقة،

وهو صاحب الفضل الأكبر فى إنشاء المكتبة الأموية ، أعظم مكتبات العصور الوسطى.

ويرجع ذلك لشخصية الحكم وشغفه الفائق بالعلم لدرجة دفعته إلى استجلاب نفائس الكتب من كل بلد وفى كل فن.

فكان يبعث بالأموال الجزيلة إلى أكابر علماء المسلمين فى كل بلد

ليحصل على النسخ الأولى من مؤلفاتهم ، وقد أرسل لأبى الفرج الأصفهاني - وهو مروانى من بنى أمية - ألف دينار من الذهب فى مقابل الحصول على نسخة من كتابه «الأغانى» كما أرسل الأصفهاني إليه كتاباً ألفه فى أنساب قومه بنى أمية ، كذلك أسبغ الحكم عناية على أبى على القالى صاحب كتاب «الأمالى» وأهدى إليه كثير من المؤلفين كتبهم،

وكان الخليفة الأندلسى يتخذ طائفة من الوراقين ينقبون له عن الكتب فى كل البلاد خاصة بغداد والقاهرة ودمشق ، كما كان فى بلاطه طائفة من النساخين ، ومن يجلدون الكتب ويصنفوها ، وقد اشتغل نساء البيوت بالنسخ واشتهرت الكثيرات منهن بجودة الخط ودقة الشخ حتى طلبت منسوخاتهن بالاسم ، وكانت نسخ القرآن الكريم التى تكتبها الأندلسيات مضرب المثل فى الدقة والجمال .

وقد ضاقت أبهاء القصر عن استيعاب الأعداد الهائلة التى كانت تأتى باستمرار ، فأنشأ الحكم مكتبة عبارة عن صرح عظيم مخصص لحفظ الكتب ، وقد تفنن المهندسون فى تزيينها وإنارة

جوانبها وقد ذكر ابن حزم أن مسئول الخزانة أخبره أن عدد فهرس المكتبة ٤٤ فهرساً فى كل فهرس خمسون ورقة ، ليس بها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط .

وكان الحكم يقرأ هذه الكتب ويعلق عليها ويستدرك على مؤلفيها بخط يده ، وكان العلماء يعتبرون ملاحظاته أصولاً يعتمد عليها ، ونتيجة لذلك نهضت صناعة الورق ، واشتهرت بلاد مثل: بلنسية وطرطوشة وشاطبة بورقها الجيد ، وكان الوراقون يطلبونه لجودته ورخص سعره ، وقد وصل الورق الشاطبى إلى كل بلدان أوربا وطلبه البابوات فى إيطاليا لكتابة الأناجيل والوثائق وتقدمت كذلك كل أدوات الكتابة من حبر وأقلام

ومحابر مزخرفة وسكاكين . الخ ، وشاعت فى قرطبة أسواق الوراقين (تجار الكتب) وأسواق الرقاقين (تجار الأدوات الكتابية).

ولم يكن هذا الشغف خاصاً بالحكم ، بل تعداه إلى كبراء العصر وعلمائه بل والنساء ، واهتم الكثيرون بإنشاء مكتبات تزخر بنفائس الكتب ، بل سرى هذا إلى اليهود والنصارى ممن أجادوا العربية وقرأوا الشعر والفلسفة بها .

وقد شهد التعليم فى عهد الحكم نهضة عظيمة ، فانتشرت بين أفراد الشعب معرفة القراءة والكتابة ، بينما كان لايعرفها أرفع الناس فى أوربا باستثناء رجال الدين ، وقد بنى الحكم مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً ، كما أسس جامعة قرطبة

أشهر جامعات العالم آنشد ، وكان مركزها المسجد الجامع ، وتدرس في حلقاتها كل العلوم ويختار لها أعظم الأساتذة .

وقد احتلت حلقات الدرس أكثر من نصف المسجد ، وتم تحديد مرتبات للشيخ ليتفرغوا للدرس والتأليف كما خصصت أموال للطلاب ومكافآت ومعونات للمحتاجين ، ووصل الأمر بنفر من الأساتذة إلى ما يشبه منصب الأستاذية اليوم في مجالات علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والنحو ، وعهد الحكم إلى أخيه المنذر بالإشراف على جامعة قرطبة ، كما عهد بمهمة الإشراف على المكتبة الأموية إلى أخيه عبدالعزيز .

وقد أسبغ الحكم رعايته على كل العلماء بصرف النظر عن ديانتهم ولهذا قرب إليه الخبير «ربيع بن زيد» لتبحره في الفلك والفلسفة والعربية واللاتينية ، ويشهد بهذه الحقيقة المستشرق الهولندي «دوزي» حين يقرر أن «إغداق الحكم على العلماء الأسبان والأجانب لم يعرف حداً ، فقد كانوا يهرعون إلى بلاطه ،



وكان الملك يشجعهم ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا في ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون خوف .

* علاقة الحكم المستنصر بالنصارى :

كان الناصر قبل وفاته قد اتفق مع ملك ليون على هدم بعض الحصون وتسليم بعضها الآخر إلى المسلمين ، فلما مات الناصر رفض ملك النصارى تنفيذ ما وعد به ، ومن ناحية أخرى كانت قشتالة تابعة لملك ليون لكن أميرها استقل وأخذ يغير على أراضي المسلمين المجاورة ثم حدثت تطورات انتهت بتحالف ملوك ليون وقشتالة ونبرة وكُونْت برشلونة جميعاً ضد المسلمين ، ونظر هؤلاء فوجدوا انشغال الحكم بالعلوم والآداب وإيثاره السلم ، فأرادوا استغلال هذا في شن الغارات على الأراضي الإسلامية .

لكن الحكم واجههم بما ينبغي وأعلن الجهاد في صيف (٣٥٢هـ = ٩٦٣م) واجتمعت إليه الجيوش في طليطلة وسار إلى قشتالة واستولى على قلعة «شنت اشتين» المنيعة وفرق قوات ملك قشتالة حتى اضطر إلى طلب الصلح ، ثم نكث عهده فعاود المسلمون الهجوم واستولوا على قلاع الحصينة ، ثم أرسل الحكم جيشاً بقيادة حاكم

سرقسطة إلى «نبرة» وجاء ملك ليون لنجدته وجرت موقعة انهزم فيها النصارى واعتصموا بالجلال ، ثم سارت القوات الإسلامية إلى قواعد «نبرة» الغربية فاستولت على حصونها ، كذلك سار حاكم وشقة شمالاً على رأس قوات نحو أراضي نفس المملكة واستولى على كل ما فيها من سلاح وحصون ، واستغرق ذلك كله سنتي (٣٥٢ - ٣٥٣هـ = ٩٦٣ - ٩٦٤م) ، بالإضافة إلى حملات قام بها المسلمون فيما تلا ذلك من سنوات وتمكنت قوات قرطبة من الاستيلاء على قلاع كثيرة وأرغمتها على التسليم والاعتراف بسيادة قرطبة ، وبدأت سفارات هذه الدولة تتوافد على العاصمة الإسلامية الأندلسية .

أضحت الأندلس كعبة تأتي إليها ملوك النصرانية وتلتبس ودها . بدأ ذلك عام (٣٥٥هـ = ٩٦٦م) واستمر بعده ، وكان أول الوافدين أمير جليقيه وأمير اشتورياس ، ثم وفدت رسل ملك نبرة ، وفي سنة (٣٦٠هـ = ٩٧١م) جاءت سفارة من أمير برشلونة تطلب تجديد الصداقة ، ثم جاءت عمة ملك ليون ، وغير هؤلاء ، كما تلقى الحكم رسائل من قيصر بيزنطة ، ومن إمبراطور ألمانيا وغيرهما ، كل ذلك جعل فندث بيدال - العالم الإسباني الكبير - يقول : «وصلت

الخلافة الأندلسية في ذلك العصر إلى أوج روعتها وبسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا وكفلت بذلك السكينة العامة» .

لكن الأندلس تعرضت لخطر النورمان الذين ظهرت سفنهم من جديد سنة (٣٥٥هـ) في مياه الشاطئ الغربي فقد جاءوا في (٢٨) مركباً ، ونزلوا جنوب شرقي «أشبونة» وعاثوا فساداً ثم زحفوا على المدينة نفسها وخربوا ، واجتمع المسلمون لقتالهم وجرت موقعة قتل فيها كثير من الطرفين ، ثم جاء أسطول إشبيلية من نهر الوادي الكبير إلى البرتغال ، والتقى بسفن الأعداء عند «شلب» ، وحطم عدداً من سفنهم وقتل بعضهم ، وأنقذ أسرى المسلمين ، بعد ذلك ارتد العدو عن المياه ، وأمر الحكم بحشد بعض سفن الأسطول عند قرطبة في نهر الوادي الكبير ، وأن يكون ترتيبها على شكل مراكب النورمان خشية تسرب الغزاة إلى العاصمة عن طريق النهر كما فعلوا في غزوتهم الأولى .

وفي سنة (٣٦٠هـ = ٩٧١م) بدأت مراكب النورمان تهدد شواطئ ولاية الغرب ، واستعد المسلمون للقائهم ، لكن هؤلاء ارتدوا من تلقاء أنفسهم دون معارك بسبب تفوق المسلمين .

* علاقة الحكم المستنصر ببلاد الشمال الإفريقي :

انشغل الحكم بدولة الفاطميين في المغرب ورأى أن قتالهم لؤن من الجهاد في سبيل الله، فشعوره الديني ودراساته وفقهه للمذهب السني وحماسه لمذهب الإمام مالك، كل ذلك جعله ينظر إلى الفاطميين على أنهم زنادقة يجب إبعاد خطرهم عن المغرب الأقصى حتى لا ينتقل خطرهم إلى الأندلس، وقد ضخّم له بعض وزرائه أمر هذا الخطر ؛ لهذا كله ، أرسل الحكم رسله إلى مواطن قبيلة «زناتة» يروجون الدعوة للحكم فيها وعند حلفائها ويدعونهم لمحاربة الشيعة .

وجرت معركة انهزم فيها الشيعة وقتل زعيم الصنهاجيين في المغرب الأقصى ، الذي كان يريد إعادة سلطان الفاطميين على هذه المناطق، واستولى الزناتيون على معسكره وانتهى سلطان الشيعة في هذه المناطق .

أراد المعز لدين الله الفاطمي الانتقام فأرسل حملة عسكرية ، يقودها «يوسف بن زيري» المسمى بـ«بلقين» ، وطلب منه ضرب زناتة أينما وجدوا ، فانتشرت قواته في المغرب الأوسط غمزق زناتة وحلفاءها ، ووصل «بلقين» إلى المغرب الأقصى يحارب زناتة حتى هزمها شر هزيمة ، وأعلن الحسن

ابن كنون خلع زعيم الأدارسة في المغرب الأقصى ، وكان قد دخل في طاعتهم خوفاً ورهباً .

أقلقت كل هذه التطورات الحكم المستنصر ، فأعد جيشاً ضخماً لغزو المغرب ومحاربة العاصي «الحسن بن كنون» ، وكذلك تم إعداد الأسطول ، وعبر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، وخرجت جموع البربر ، لمهاجمة قوات الحكم فلحقت الهزيمة بقوات البربر وفر ابن كنون هارباً ، واستسلم أهل طنجة وأصيلا ، لكن ابن كنون تمكن من جمع قواته ثانية ، وهزم الأندلسيين الذين فروا إلى سبتة ، وبعثوا للحكم يطلبون النجدة ، عرض ابن كنون الصلح لكن الحكم رفض وطلب من قواته أن تستمر في مقاتلته بسبب نكته المستمر للعهود ، وأعد جيشاً قويا ولّى قيادته قائده الكبير الملقب بفارس الأندلس والمسمى بغالب بن عبدالرحمن الناصري الصقلبي - صاحب المعارك الناجحة ضد جيوش النصارى في منطقة الثغر الأوسط وعاصمتها مدينة سالم - وتم تزويد غالب بكل ما يحتاج إليه وأمره الحكم أن يجد في قتال الأدارسة .

عبر غالب في (١١ رمضان ٣٦٢هـ = ١٥ يونيو ٩٧٣م) ونشب القتال بينه وبين عدوه لأيام ، ثم

أخذ ينشر الأموال في رؤساء البربر حتى انفصلوا عن الحسن ، واضطر إلى أن يعتصم بقلعة النسر - جنوبي تطوان - حيث واصل غالب مطاردته وحصاره ، وقطع عنه كل الموارد ، وانتشرت القوات لاستئصال شأفة الأدارسة ، وجرت معارك عدة انتصرت فيها قوات الحكم وسلمت بعض المدن ، ثم اضطر الحسن بن كنون إلى طلب الصلح في (جمادى الأولى سنة ٣٦٣هـ = يناير ٩٧٤م) ، ودخل غالب قلعة النسر ثم تنبع من بقى من الأدارسة ببلاد الريف وقضى على دولتهم ووصل إلى فاس وعين لها حاكماً ، وقبل هزيمة الحسن وصلت أعداد كبيرة من زعماء البربر ، ووصل من فرسان كتامة وحدها نحو (٣٥٠٠ فارس)، إلى قرطبة ، وأعلنوا جميعاً طاعة الحكم فرحب بهم وقبل طاعتهم ، وأصدر سجلات تحدد حقوقهم وواجباتهم فيما يتعلق بالجباية (الضرائب) ونحوها ، وبذلك صفا الجو في بلاد المغرب وخضع للدولة الأموية .

في (أواخر ذى الحجة ٣٦٣هـ = يناير ٩٧٤م) عبر غالب إلى الجزيرة الخضراء ومعه «الحسن بن كنون» وجماعته ، وقد أكرمهم الحكم وعين بعضهم في ديوانه ، وظلت

علاقاتهم بالحكم جيدة لمدة عامين، ثم ساءت بسبب سوء خلق الحسن، ولأن الحاجب «جعفر بن عثمان المصحفي» كان يتوجس منه ومن أصحابه شراً ويستثقل نفقتهم، ولهذا فقد تقرر إرسالهم إلى تونس سنة (٣٦٥هـ = ٩٧٦م) ومنها ساروا إلى مصر ؛ حيث أكرم الخليفة الفاطمي العزيز بالله وفادتهم .

ومن هذا يتضح أن سياسة الحكم الإفريقية تختلف عن سياسة أبيه الناصر الذي اكتفى بالاستيلاء على طنجة وسبتة ومليلة، وبذلك حمى سواحله الجنوبية معتمداً على قبائل زناتة المناوئة للفاطميين ، وكان الناصر يدهم بالهدايا ويستقبلهم أحسن استقبال، ويرحب بالمتطوعين الذين يفدون من المغرب بأعداد كبيرة ، وبهذا دان له المغرب ، أما الحكم المستنصر فقد أرسل الجيوش تلو الجيوش بهدف فتح المغرب وأنفق على ذلك أحلاماً من المال والحلى، وكل ذلك كان على حساب الثغور الشمالية ومناطق الحدود مع النصارى .

في أوائل (٣٦٥هـ = ٩٧٦م) شعر الحكم المستنصر بأعراض المرض تدب في جسمه ، فدعا إلى مبايعة ابنه الطفل الصغير «هشام» بالعهد وكان عمره اثنتي عشرة سنة

وقمت البيعة بفضل جهود أم الطفل «صبح» البشكنسية التي استعانت بكبار رجال الدولة من أمثال «جعفر المصحفي» و«محمد بن أبي عامر» صاحب السكة والموارث (الأوقاف) صاحب الطموح الذي أعانه منصبه على تدبير مال كثير مكنه من ضمان العرش للصغير هشام ، وقد تعرض الحكم للوم كثير من المؤرخين - على رأسهم ابن حيان - بسبب اختياره طفله لولاية العهد .

ومهما يكن من أمر فقد توفي الحكم في (٢ صفر ٣٦٦هـ = ٣٠ سبتمبر ٩٧٦م) ، وبموته انتهى آخر العظماء من بني أمية في الأندلس .

وقد أشاد المؤرخون بأخلاق الحكم وعلمه وعدله وأشاروا إلى أنه كان يعرف أقدار الرجال ويصطفى المتميزين منهم ، كما كان يختار من يراقب النصارى وينقل إليه أخبار ممالكهم برغم ميله إلى السلم والمهادنة .

وكان كريماً يحب العفو خيراً يحسن إلى الفقراء دائماً ، وقد نعمت البلاد في أيامه بأمان واستقرار لم تعرفه من قبل ، وكان الحكم - بالإضافة إلى ذلك كله - شاعراً يحب نظم الشعر وكتابة القصائد وبعد وفاة الحكم تولى ابنه هشام المؤيد بالله .

١- الملك هشام المؤيد بالله

صفر ٣٦٦ - ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ = أكتوبر ٩٧٦ - ١٦ فبراير ١٠٠٩م

تمت البيعة لهشام الطفل الصغير ولم يشذ عن بيعته أحد ، وأضحت السلطة بيدي الحاجب جعفر المصحفي وصاحب الشرطة والموارث (القضاء) «محمد بن أبي عامر» ، وشخصية ثالثة ذكية طموحة تشاركهما من وراء ستار هي «صبح» البشكنسية أو النفارية، نسبة إلى بلاد البشكنس أو إقليم «نبرة» ، وقد اشتركت في الوصاية على الصبي وأصبحت لها سلطة شرعية في تدبير شئون الحكم ، وهذه السيدة كانت لها شخصيتها وتأثيرها منذ عهد زوجها الحكم وكانت تستأثر بكثير من الأمور وتستشار وتختار كبار المسؤولين .

وكان الحاجب جعفر يحرص على إرضائها ، ثم دخل الميدان «محمد ابن أبي عامر» وهو رجل عربي الأصل ، وفد إلى قرطبة ، وأظهر نبوغاً في الأدب والشرعية وظهرت مواهبه كما ظهر طموحه ، وعندما أراد الحكم تعيين مشرف لإدارة أملاك ابنه «عبدالرحمن» ثم ابنه «هشام» ، رشحه الحاجب جعفر لهذه المهمة ، وأعجبت «صبح» بذكائه ، ثم عين مسئولاً عن



الخزانة العامة وعن دار السكة، ثم مسئولوا عن خطة الموارث (الأوقاف) فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة، ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى، وناظرًا على الحشم (الحرس الخاص) ومنح لقب «فتى الدولة».

ولما بويح هشام بالخلافة جمعت المصالح بين الثلاثة لكن المنافسة كانت قوية بين جعفر وابن أبي عامر، وتوثقت العلاقة أكثر بين الأخير وبين «صبح» وتجدد تعيين «جعفر» حاجباً لهشام، بينما رقى «ابن أبي عامر» إلى مرتبة الوزارة، وعاون جعفر المصحفي في تدبير شئون الدولة.

هنا بدأ جعفر يشعر أن في هذا انتقاصاً من سلطته ونكراناً لجميله، وبدأ يشك في نيات «ابن أبي عامر» وأخذ صراع صامت بين الرجلين يظهر في الأفق، وكان ابن أبي عامر أقرب إلى «صبح» بحكم ما عنده من مواهب وإمكانات وقدرة على توفير الأمن لابنها وحمايته، وغدا السيد المطلق، ووصل به الأمر إلى الحجر على «الطفل هشام» وتركه يلهو ويلعب دون أن يسمح لأحد برؤيته، وقضى على كل من وقف في طريق سيطرته بما في ذلك الحاجب «جعفر» نفسه وكذلك الصقالبة.

سنتحت فرصة لابن أبي عامر لتوطيد سلطانه عندما تجرأ بعض زعماء «قشتالة» وهاجموا أراضي المسلمين، حتى وصلوا قرب العاصمة، متتهزين فرصة موت الخليفة الحكم، ولم يستطع الحاجب جعفر استئناف الجهاد، فقام «ابن أبي عامر» بهذه المهمة، وخرج في غزوته الأولى التي استمرت ثلاثة وخمسين يوماً، أدب خلالها العدو وعاد مثقلاً بالغنائم، وكان لذلك أثره في نفسية الشعب الذي اعتبره حاميه، خاصة وقد غمر الجند والناس بموفور عطائه.

اشتعل العداء بين الحاجب جعفر وبين القائد غالب صاحب مدينة «سالم» فسعى ابن أبي عامر لدى «صبح» حتى تم تعيين «غالب» حاجباً، ومنح لقب «ذى الوزارتين» وتولى قيادة جيش الثغر على أن يتولى ابن أبي عامر قيادة جيش الحضرة، وخرج الرجلان معاً واخترقا أرض قشتالة القديمة وحققا نجاحاً مشتركاً، ثم عادا؛

هذا إلى الثغر وذاك إلى قرطبة بعد أن تحالفا على سحق «جعفر المصحفي»، وبهذا الانتصار ازداد التفاف الشعب حول «ابن أبي عامر» ومحبة له، ولذلك ما إن عاد إلى قرطبة حتى خرج أمر الخليفة بعزل «جعفر» عن حكم المدينة وإسناد هذا المنصب لابن أبي عامر، وسيطر بذلك على الجيش والمدينة معاً وضبط الأمور ووفر الأمن.

أراد ابن أبي عامر أن يوثق علاقته أكثر بغالب، فخطب ابنته، وخرج معه في غزوة ثالثة قصدت مملكة ليون وعاثت فيها لمدة أربعة وثلاثين يوماً، بعدها رقى ابن أبي عامر إلى خطة الوزارتين أسوة بغالب، وتم زفافه على ابنة «غالب» بعد ذلك استقدم الخليفة غالباً وقلده خطبة الحجابة إلى جانب «جعفر المصحفي» ثم صدر أمر الخليفة في (١٣ شعبان ٣٦٧هـ = ٢٦ مارس ٩٧٨م) بإقالة جعفر والقبض عليه، وألقي في السجن حتى مات فيه سنة (٣٧٢هـ = ٩٨٢م).

الدولة العامرية

[٣٦٨ - ٣٩٩هـ = ٩٧٨ - ١٠٠٩م]

بعد أن أصبحت السيطرة كاملة لابن أبي عامر فكر في إنشاء مدينة جديدة يتوافر فيها الأمان ومظاهر السلطان فكانت مدينته الزاهرة أو العامرية شرقي قرطبة والتي استغرق بناؤها عامين، وضمت قصرًا ومسجدًا ودواوين للإدارة ومساكن للحرس،



ونقل خزائن المال والسلاح إليها، وأقيم حولها سور ضخيم كما بنى خندقًا وتم إقطاع ضواحيها للوزراء والقادة، فابتنوا الدور وأنشئت الشوارع والأسواق حتى اتصلت مبانيها بضواحي قرطبة، وقد انتقل إليها ابن أبي عامر سنة (٣٧٠هـ = ٩٨٠م)، واتخذ له حرسًا خاصًا من الصقالبة والبربر أحاطوا بقصره، ومنعوا الدخول والخروج إليه، وبذلك أقفرت قرطبة وأقفر قصرها ونقلت كل مظاهر السلطان إلى المدينة الجديدة، ومنع الخليفة من أي حركة إلا بإذن ابن أبي عامر حماية له من المتآمرين وحتى يتفرغ للعبادة كما زعم.

حاولت «صبح» بعد هذا التطور أن تستبعد «ابن أبي عامر» مستعينة بمنافسيه، ولجأت إلى القائد «غالب» - صاحب الثغر - في سرية تامة، فرد ابن أبي عامر بتقريب «جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي» - وهو بربري من زناتة - عبر البحر وتقلد الوزارة، واستعان به ابن أبي عامر على كسب مودة البربر الذين

توافدوا من عدوة المغرب إلى الأندلس، وغمرهم بأمواله.

أراد غالب مصانعة ابن أبي عامر فدعاه إلى غزوة مشتركة في أراضي قشتالة، وأقام له وليمة دخل معه خلالها في نقاش عنيف ورفع السيف فأصيب ابن أبي عامر، لكنه استطاع الفرار وذهب إلى دار

غالب بمدينة سالم واستولى على كل ما كان فيها، ثم دخل الفريقان في قتال عند حصن «شنت بجنت» يعاون غالب ملك ليون، وانتهى الأمر بموت غالب وهزيمة أعوانه من المسلمين والنصارى في (٤ المحرم سنة ٣٧١هـ = ١٠ يوليو ٩٨١م).

* غزوات ابن أبي عامر:

بدأت سلسلة هذه الغزوات الشهيرة بعد أن استقرت الأمور لابن أبي عامر، ووصل عددها إلى نحو أربع وخمسين غزوة استقصى المؤرخ القرطبي ابن حيان أخبارها في كتاب له مفقود عنوانه «الدولة العامرية» ويتحدث عنها ابن خلدون فيقول:

«غزا ابن أبي عامر اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ولا أصيب له بعث ولا هلك له سرية».

وقد بدأ «ابن أبي عامر» غزواته بمملكة «ليون»؛ ليعاقب ملكها على معاونته لغالب، وقد تحالف

ضده ملوك النصارى الثلاثة : ملك ليون ، وملك قشتالة ، وملك نبرة ، وجرت بينه وبينهم موقعة عند «شنت منكش» انتصر فيها «ابن أبى عامر» ، ووصل إلى عاصمة مملكة «ليون» ، ثم عاد إلى «قرطبة» (٣٧١هـ = ٩٨١م) بسبب حلول الشتاء ، وبعد عدة أشهر من عودته اتخذ لنفسه لقب «الحاجب المنصور» ودعى له على المنابر وصدرت الكتب باسمه ونقش على السكة ، وقبل المسئولون وكبار الموظفين والوزراء يده وأصبح هو كل شيء .

وفى سنة (٢٧٣هـ = ٩٨٤م) خرج «المنصور» إلى شمال شرقى «الأندلس» على رأس جيش ضخم مر بغرناطة ثم «بسطه» فلورقة فتدمير «مرسية» ، ثم اتجه شمالا إلى «برشلونة» ، حيث دخل منطقة «قطلونية» ، ثم اقتحم مدينة «برشلونة» ودمرها وأحرقها فى (صفر ٣٧٥هـ = يوليو ٩٨٥م) ، ولم يحاول المنصور الاحتفاظ ببرشلونة ، وإنما قصد إلى تدمير قوى النصارى فى هذه المنطقة النائية .

عليها وبقيت خراباً مدة سبعة أعوام ، ثم سار المنصور نحو مملكة «نبرة» وقصد عاصمتها «بنبلونة» رداً على إغارة ملكهم على أراضى المسلمين ، وغزوة المنصور هذه تسمى غزوة البياض ، وقد عاد بجيشه إلى «سرقسطة» والتقى هناك بابنه عبد الملك بعد عودته ظافراً من حروبه فى بلاد المغرب كما سنشير فيما بعد .

وفى ربيع (٣٧٨هـ = ٩٨٨م) خرج المنصور فى جيش ضخم ، واخترق مملكة ليون واستولى على عاصمتها بعد معارك عنيفة ، ثم سار إلى «سمورة» وحاصرها حتى سلمت ، واعترف النبلاء له بالطاعة ، ولم يبق تحت سيطرة ملك ليون إلا المنطقة الجبلية الواقعة شمالى غربى إقليم جليقية .

وأثناء قيام المنصور بغزوته هذه رقم (٤٥) انضم ابنه «عبد الله» إلى ملك قشتالة بتحريض من صاحب الشجر الأعلى «عبد الرحمن بن مطرف التجيبى» وكانت عاصمته «سرقسطة» ، ولكن المنصور ضغط على الملك النصارى عن طريق العمليات العسكرية المتتالية فسلمه ابنه ، ولم يتردد المنصور فى قتل ولده فى الحال .

ثم قام «المنصور» سنة (٣٨٧هـ) بأعظم غزوة قام بها متجهاً نحو منطقة جليقية ، وهى منطقة وعرة من الصعب غزوها ؛ لأنها ملاذ

ملوك ليون يلجؤون إليها كلما ضيق المسلمون الخناق عليهم ، فخرج المنصور إليها من قرطبة فى (شهر جمادى الآخر سنة ٣٨٧هـ = ٩٩٧م) ، وفى الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسى فى مياه البرتغال يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ، وعبر المنصور الجبال والأنهار حتى وصل إلى مدينة قورية ، ثم زحف نحو الشمال الغربى واستولى على مدينتى : «بازو» و«قلمرية» ؛ حيث وفد إليه العديد من أمراء النصارى وانضموا إلى جيشه وأطاعوه ، بعد ذلك توجهت القوات الإسلامية شمالاً نحو نهر «دويرة» ، حيث وافاه الأسطول ، فجعله جسراً عبر به صوب جليقية ، وسار فى شعب الجبال ، ثم التزم المشى بحذاء الشاطئ يهدم ويخرب ، ففرت أمامه جموع النصارى ، وظل المنصور



يواصل عملياته حتى انتهى إلى مدينة «شنت ياقب» المقدسة عند النصارى فحطمها وهدم كنيسها ، ولم يبق إلا على قبر القديس الموجود فى وسط الكنيسة ، واستولى المسلمون على أبواب المدينة وعلى نواقيس الكنيسة ، وكلفوا النصارى بحملها حتى قرطبة ، وقد وضعت الأبواب فى سقف زيادة المسجد الجامع التى أضافها المنصور ، وأصبحت النواقيس رؤوساً للثريات ، ثم سار المنصور حتى وصل إلى شاطئ المحيط وتابع سيره إلى أن أصبح فى شمال البرتغال الحديثة ، وهناك وزع الهدايا على الموالين له من زعماء النصارى وطلب منهم أن

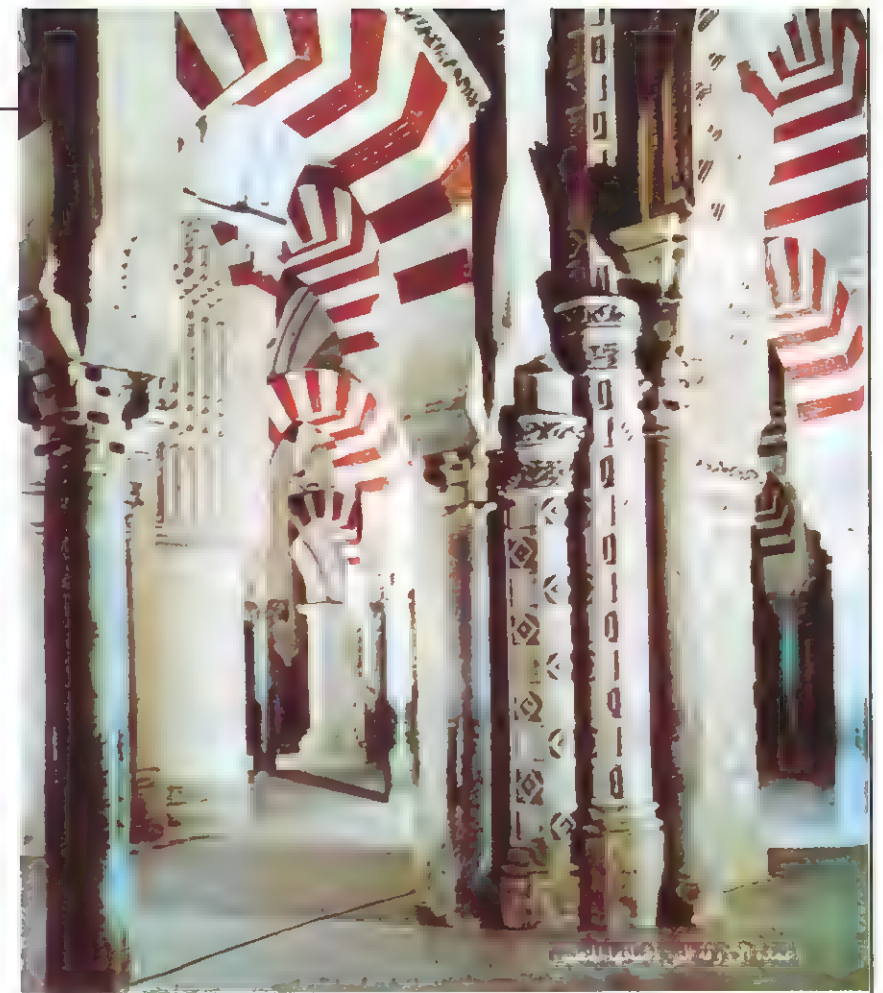
يعودوا إلى بلادهم ورجع هو إلى مدينته الزاهرة . وقد هزت هذه الغزوة إسبانيا النصرانية ، وبقي تأثيرها بضع سنين وكانت الثامنة والأربعين من بين مجموع غزواته . ثم قام المنصور بعد ذلك بغزوات فى سنوات (٣٨٩ ، ٣٩٠هـ = ٩٩٩ ، ١٠٠٠م) فى أراضى نبرة وقشتالة ؛ حيث واجه جموع النصارى متحدين مصممين على النيل منه ، وتعرض المسلمون للهزيمة أول الأمر ، لكن المنصور صعد على ربوة عالية ، وأخذ يضاعف جهوده ويحرض الناس ، حتى تمكن من تحويل الهزيمة إلى نصر ومزق العدو شر ممزق ، وتوالى زحفه حتى



اقتحم مدينة «برغش» ، ومنها توجه إلى «سرقسطة» ، ثم إلى «بنبلونة» عاصمة «نبرة» دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه وأخيراً رجع إلى العاصمة بعد تسعة ومائة يوم .

وفى ربيع (٣٩٢هـ = ١٠٠٢م) خرج المنصور لآخر مرة ، وتوجه إلى قشتالة ومنها اتجه غرباً نحو «برغش» وعاث فى تلك المنطقة ، وتقول المصادر النصرانية إنه تعرض لهزيمة على أيدي ملوك النصارى متحدين ، وإنه اضطر إلى الفرار فى جنح الظلام بعد موقعة معهم جرت أحداثها بمكان يسمى «قلعة النصور» ، وقد جرح المنصور ثم مات بعد ذلك متأثراً بجراحه ، لكن الباحثين المحدثين - ومنهم المستشرق الهولندى دوزى - يرفضون هذه الرواية لأنها تخالف الحقائق التاريخية الثابتة ، فهى تتحدث عن تحالف بين ملوك من النصارى ماتوا قبل هذه الموقعة ، أضف إلى ذلك أن المصادر الإسلامية لاتذكر شيئاً عن تلك الموقعة ، مع أنها لاتخفى هزائم المسلمين ، فالصمت قرينة على أنه لم تكن هناك هزيمة ولا حتى موقعة أصلاً .

ومهما يكن من أمر فقد سار المنصور فى حملته هذه محمولا حتى وصل إلى «مدينة سالم» ، وهناك وافاه الأجل فى (٢٧ رمضان ٣٩٢هـ = ١١ أغسطس ١٠٠٢م) بعد حكم دام ٢٧ عاماً .



* المنصور وولاية العهد :

إلى المنصور ؛ بسبب الوسائل الدموية التي لجأ إليها لتصفية خصومه .

* الجيش في عهد المنصور :

أعطى المنصور اهتماماً كبيراً للجيش ، فعنى بتنظيمه ، واستقدم قوات تعدد بالألوف من المرتزقة من قبائل زناتة وصنهاجة وغيرهما من البربر ومن الجند النصارى ، وكون من هؤلاء جميعاً جيشاً ضخماً ضمن ولاءه له بجوده ووفرة عطايه ، كما غير من نظام الجيش ، فقدم رجالات البربر وأخر زعماء العرب وفرق جند القبيلة الواحدة ، وكان الخليفة الناصر من قبله قد مهد له الطريق عندما سحق القبائل العربية وأضعف هيبتها حسبما أشرنا من قبل ، أى أن ابن أبى

عامر وجد الطريق ممهداً ، فلم تلق سياسته كبير معارضة .

وقد نفر المحاربون القدماء والأندلسيون بشدة من ذلك الجيش وسعد «ابن أبى عامر» بهذا النفور لأنه يقف حائلاً بين عناصر الجيش القديم وبين اتحادها ضده ، كما أنه يشعر البربر بضرورة الاعتماد عليه .

ومن أهم ما فعله فصل جيش الحضرة (قرطبة) عن الجيش العام ، وتعيين نفسه قائداً له ، فأصبح قوة عسكرية ، وفتحت له والده الخليفة بيت المال ظناً منها أنه يعمل لحسابها وحساب ابنها ، فأكثر من الجند ، وأصبح مستبداً عسكرياً ، وتحول من فقيه إلى رجل سياسة ، وملك من القوة العسكرية ما لم يملكه من سبقوه ، فالناصر رغم ميله إلى الاستبداد كان يقف عند حد معين ، ويعلم أنه من المستحيل القضاء على النصارى فيكتفى بإضعافهم وحملهم على أداء الجزية ، أما المنصور فتتوالى ضرباته دون أن يحاول ضم جزء إلى أراضى الخلافة ، أو إسكان بعض المسلمين فى الأراضى التى يفتحها وإنما يضرب ويحوز الغنائم ويعود النصارى إلى ما كانوا عليه ، وكأنه لم يكن يهدف إلا إلى ذلك .

وجدير بالذكر أن المنصور فى سنة (٣٨٨هـ = ٩٩٨م) أعفى الناس من إلزامهم بالغزو ؛ بسبب ما وصلت إليه أعداد الجيش وما توافر له من قوة ، واكتفى بالقوات

المرابطة ، وقد بلغ الجيش المرباط أى الثابت فى زمن المنصور (١٢١٠) من الفرسان يصرف لهم جميعاً المرتبات والسلاح والنفقة بخلاف (٦٠٠) فارس للحراسة الخاصة ، أما الجيش المرباط من الرجال فقد بلغ ستة وعشرين ألفاً ، وكان هذا العدد يتضاعف بمن ينضم إليه من المتطوعة أثناء الصوائف ولا يدخل فى هذا الخيل ومطايا الركوب ودواب الحمل وغيرها من العدد ، وكان المنصور يتولى قيادة قواته بنفسه غالباً .

وقد حققت غزواته أهدافها من ردع النصارى ومنعهم من الهجوم على أراضى المسلمين ، وكان يعرف أبرز جنده جميعاً بأسمائهم ويدعوهم إلى المآدب التى يقيمها عقب كل انتصار ، ومع ذلك فإن المحصلة النهائية لغزواته كانت ضعيفة فهو لم يقضى على كل قوى النصرانية أو يسحقها ، وغزواته وإن أضعفت النصارى ، فإنها لم تغير أحوالهم ، وبقيت حدود دولة الإسلام على ما هى عليه ، فهى غزوات دويها عظيم تجذب الناس إليها ، لكن نتائجها قليلة فقد أنهكت قوى الجيوش الإسلامية دون أن تحقق هدفاً ثابتاً أو تقضى على خصم ، إنها مثل الطبل الأجوف صوت كبير وعمل قليل .

* إدارة المنصور :

أظهر المنصور مقدرة كافية ممتازة فى جميع المناصب التى تولاها وشهدت البلاد فى زمنه أمناً واستقراراً وطمأنينة لم تعرفها قبله ، وفى زمنه لم تعرف البلاد الثورات مقارناً بغيره ، وازدهت الصناعة والتجارة والزراعة ، وارتقت العلوم والآداب ، وامتألت خزائن قرطبة بالمال حتى وصلت الإيرادات إلى نحو أربعة ملايين دينار ، بخلاف الموارد من الموارث ومال السبى والغنائم ، وقد عاون المنصور مجموعة من الكتاب والوزراء فى هذا العصر من أبرزهم : «أبو مروان عبدالملك بن شهيد» و«محمد بن جهور» و«أحمد بن سعيد بن حزم» والد الفيلسوف المشهور ، و«خلف ابن حسين بن حيان» والد أمير المؤرخين الأندلسيين «ابن حيان» ، ومن الكتاب «سعيد بن القطاع» وغيره من أبناء الأسر العريقة التى تعاقب أبنائها على الوزارة .

* العمارة فى عهد المنصور :

لم يخل عهد المنصور من الإنشاءات العظيمة على الرغم من الغزوات المستمرة وقد أشرنا إلى بنائه مدينته الزاهرة بقصورها وحدائقها ، وجعلها قصراً للحكم والإدارة ، وقد بنى المنصور بجانبها منية جميلة ازدانت بالحدائق والقصور أسماها «العامة» ، وكان يقصدها عندما يريد الاستجمام .

كذلك قام بزيادة المسجد الجامع فى «قرطبة» بعد أن اتسعت المدينة ، وضمت واحداً وعشرين حياً ، الواحد فيها أكبر من أية مدينة أندلسية ، وقد حفر حولها خندقاً بلغ ١٦ ميلاً وزاد سكانها كثيراً لا سيما البربر ، وضاق المسجد الجامع بهؤلاء السكان فأدخل المنصور فى سنة (٣٨٧هـ = ٩٩٧م) زيادة عليه من الناحية الشرقية ، بلغت المساحة الأصلية نفسها تقريباً ، وحرص المنصور على الاشتراك فى هذا المشروع بنفسه ، واشتغل فيه أسرى النصارى ، وتم تعويض أصحاب الدور والأماكن التى صودرت لهذا الغرض ، ولا يزال هذا الجناح قائماً حتى اليوم ، ويعرف بمسجد المنصور وإن تحولت عقود الجانبيه إلى هياكل وكنائس .

وبهذه الزيادة بلغت مساحة المسجد الجامع ما يزيد على ستة أفدنة ، كما انفرد بطرازه الرائع ، وليس فى العالم مسجد ولا كنيسة فى مثل حجمه اللهم إلا قصور «فرساي» بفرنسا .

كما جدد المنصور قنطرة قرطبة على نهر الوادى الكبير ، وكان «السمح بن مالك» قد جددتها من قبل وأنفق المنصور على تجديدها فى سنة (٣٧٨هـ = ٩٨٨م) مائة وأربعين ألف دينار وبنى قنطرة «استجه» على نهر «شنيل» أحد فروع نهر الوادى الكبير .

* المنصور في نظر المؤرخين :

يشهد المؤرخون القدماء للمنصور بالكرم ، وبأنه كان يبذل الأموال للمتصلين به والفقراء خاصة ، ورغم سفكه للدماء فقد كان يتظاهر بالتقوى ، حريصاً في كل غزواته على حمل مصحف خطه بيده ، ويقال إنه كان منصفاً عادلاً يزرع الظالم حتى لو كان من كبار حاشيته ، وكان صبوراً حليماً ، ولكنهم ينعون عليه شغفه بمعاقرة الخمر ، ولم يتخل عن ذلك إلا قبل وفاته بعامين .

وتميز المنصور بأنه كان شغوفاً بالعلم والأدب ، محباً للعلماء والأدباء والشعراء ويناظرهم ويشترك معهم في نظم الشعر ويغدق عليهم ، ساعده على ذلك نشأته في بيت علم وأدب ، وبراعته في علوم الشريعة وفنون الأدب خلال فترة صباه .

وحرص المنصور على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم في قرطبة وأنفق عليها ، وكان يزور المساجد والمدارس ، ويمنح المكافآت للمتفوقين من الطلاب ، كما حرص على جمع الكتب ومكافأة

أصحابها ، وقد منح «صاعد البغدادي» (٥٠٠ دينار) مكافأة له على كتابه «الفصوص» ، وكان يكره الفلسفة ، ويرى أنها مخالفة للدين كما كان يبغض التنجيم ويطارد المنجمين ، وقد استخرج من المكتبة الأموية جميع كتب الفلاسفة والدهريين وأحرقها بحضرة كبار العلماء ، وما فعله «المنصور» أمر خطير ، تسبب في ضياع ثروة علمية عظيمة .

ونظراً للشهرة الواسعة التي حققها المنصور ، جاء إليه بعض ملوك النصارى واستعطفوه وتقربوا إليه وزوجوه من بناتهم .

ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن «ابن أبي عامر» من أعظم الرجال وأنه قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام ، فقد استطاع الاستيلاء على الحكم في دولة كبرى ، وهى فى أوج سلطانها ووجه أمورها بصورة مستبدة .

ومع ذلك فإن هنا أموراً ثلاثة هى أكثر ما أضر به المنصور :

١ - إقامته ملكه على جند مرتزقة تعالوا على الناس ، واصطناعه لبيوت جديدة من زعانف الأسر ، وصغار الفقهاء والطامعين ، وتولييتهم وظائف

القضاء والولايات ، وقد أثقل هؤلاء على الناس ، وأرهقوهم بالمطالب ، واستولوا على أموالهم ، ومن هؤلاء بنو عباد فى إشبيلية ، ومن البربر الذين استعان بهم فى النواحي ، بنو الأفطس فى بطليوس وبنو ذى النون جنوب غربى طليطلة - بالإضافة إلى الصقالبة الجدد الذين اشتراهم المنصور لحسابه ومن هؤلاء جميعاً يتكون الحزب العامرى - وهم الذين قضوا على وحدة الأندلس فيما بعد ، ويتكون منهم ما يعرف بملوك الطوائف .

٢ - انعدام المفهوم الأخلاقى عنده ، وهذا جعل الناس يخافونه ولا يحبونه ، بل إن أنصاره ما كانوا يأمنونه ؛ لأنه كان كثير التجسس فكان يطلب من العبيد والجواري أن يكونوا عيوناً فى بيوتهم وأفسد أخلاق الناس بالرشوة ونحوها .

٣ - حجر المنصور على الخليفة «هشام» ، وتعيين ابنه «عبدالمالك بن المنصور» ولياً لعهد ، والتخلص من معارضيه بالتآمر والقتل .

ولقى المنصور ربه فى «مدينة سالم» فى (٢٧ من رمضان سنة ٣٩٢هـ = أغسطس سنة ١٠٠٢م) كما أسلفنا وتولى الأمر من بعده ابنه عبدالمالك المظفر .

عبدالمالك المظفر بالله

ابن المنصور

[رمضان ٣٩٢ - صفر ٣٩٩هـ = أغسطس ١٠٠٢ - أكتوبر ١٠٠٨م]

صدر أمر الخليفة «هشام» بتولية «عبدالمالك» الحجابة بعد وفاة والده ، وقضى عبدالمالك بسرعة على من أراد انتهاز الفرصة للعودة إلى حكم الخليفة ، وقد بدأ عهده بإسقاط سدس الجباية (الضرائب) عن السكان بكل نواحي الأندلس فاستبشر الناس به خيراً .

* سياسة عبدالمالك مع النصارى:

ظن ملوك النصارى أن خطر الغزوات الإسلامية عليهم سيقبل بعد وفاة المنصور ، لكنهم كانوا واهمين لأن عبدالمالك بدأ بعد أشهر قليلة من ولايته يستعد لغزوته الأولى ، ووفد إليه الزعماء والمتطوعة من المغرب وغيرها للاشتراك معه ، فرحب بهم وبذل لهم الأموال ووزع عليهم السلاح ، وخرج بالجيش من مدينة الزاهرة فى (شعبان ٣٩٣هـ = يونيو ١٠٠٣م) ، وتوجه إلى مدينة «طليطلة» ، ومنها إلى مدينة «سالم» ، حيث انضم إليه «الفتى واضح» فى قواته وقوات من النصارى حسب اتفاقهم مع المنصور ، ثم اتجه الجنود نحو الثغر الأعلى ، ثم من سرقسطة إلى «برشلونة» ، حيث استولت القوات الإسلامية على بعض الحصون المنيعة ، واستولت على سبى ومغانم ، ثم عاد المسلمون إلى قرطبة عن طريق مدينة «لاردة»

فى شهر ذى القعدة ، وقد تلقى عبدالمالك رسالة من أمير برشلونة تطلب الصفح والمهادنة فاستقبل الرسل استقبالا يليق بمقام الخلافة .

ولما اعتدى أمير قشتالة على أراضي المسلمين سنة (٣٩٤هـ = ١٠٠٤م) قصد إليه عبدالمالك وأدبه ، واضطره إلى التسليم وطلب الصلح ثانية ، وتعهده على التعاون مع عبدالمالك فى حملاته ضد مملكة ليون وضد خصومه جميعاً .

وفى العام التالى خرج «عبدالمالك» وسار نحو طليطلة ولحق به «الفتى واضح» وملك قشتالة ، واتجهوا شمالاً نحو أراضي ليون ومدينة سمورة وعاث فى هذه النواحي ووصل إلى جليقية واستولى على كثير من المغانم والسبى ، ولكنه لم يحقق نتائج حربية ذات قيمة .

خرج عبدالمالك فى أواخر سنة (٣٩٦هـ = ١٠٠٦م) إلى «بنبلونة» عاصمة «نبرة» فقصد «سرقسطة» و«شقة» و«بريشتر» ومنها اخترق المسلمون أراضي العدو وأخذوا

يقتلون وينهبون ، ثم تعرض الجيش لبعض العواصف ورعد وبرق قاسٍ ، واضطر إلى العودة إلى العاصمة .

حين وصل إلى مسامع عبدالمالك أن أمير قشتالة يفكر فى الاعتداء على أراضي المسلمين ، خرج لغزوته الخامسة المسماة «غزوة قلونية» فى (صيف ٣٩٧هـ = ١٠٠٧م) ، واخترق أراضي قشتالة ليحارب ملكها الذى تحالف معه ملك ليون وملك نبرة ، وعدد من زعماء النصارى الذين وحدوا صفوفهم ، ومع ذلك فقد تمكن عبدالمالك من إلحاق هزيمة بهم جميعاً عند مدينة «قلونية» ، وحملهم على طلب الصلح ثم عاد إلى قرطبة أواخر العام المذكور ، فسر الناس بما حقق ، واتخذ هو لقب «المظفر بالله» إشادة بما أحرز من نصر عظيم .

لكن ملك قشتالة جدد عدوانه وغدر بالمسلمين فخرج إليه عبدالمالك فى (صفر سنة ٣٩٨هـ = أكتوبر ١٠٠٧م) ، واخترق أراضي

قشتالة الوسطى ، وقصد إلى بعض الحصون المنيعية ، وجرت معركة ، اضطر النصارى بعدها إلى دخول الحصن ، وهجم عليهم المسلمون وضربوا الحصن بالمجانيق والنييران حتى حملوا العدو على طلب التسليم ، وهنا أمر عبدالمملك بقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية ، ثم رجع إلى العاصمة في شهر ربيع الثاني .

وفي شوال من العام نفسه خرج عبدالمملك بغزوته السابعة والأخيرة وتعرف «بغزوة العلة» ؛ إذ إنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض وتفرق عنه المتطوعة ، واضطر إلى الرجوع إلى قرطبة في (المحرم ٣٩٩هـ = سبتمبر ١٠٠٥م) لكنه شعر بتحسن في صحته فعمل على استئناف الغزو بعد فترة وجيزة لكن حالته ساءت ، وتعرض لنكسة سببها التهاب رئوى ، وعاد إلى العاصمة في محفة حيث مات في (١٦ من صفر سنة ٣٩٩هـ = ٢١ من أكتوبر ١٠٠٨م) بعد حكم دام نحو سبع سنوات .

*** أسلوب عبدالمملك في الإدارة والحكم :**

التزم عبدالمملك الأسلوب الذى كان يحكم به والده الأندلس فجعل الخليفة محجوراً عليه لاحول له ولا قوة .

وجمع السلطات كلها فى يديه ، وحداً من نفوذ الوزراء والكتاب

وراقبهم وحاسبهم ، وجلس للناس وهجر اللهو ، وعمل على تنمية الموارد وترتب على هذا تحسن فى الأحوال المالية التى كانت قد ساءت بسبب كثرة النفقات .

ولم يكن لعبدالمملك نصيب كبير فى مجالات العلم والأدب وكان مجلسه لا يقوم إلا على الأعاجم من البربر وغيرهم ، ومع ذلك فقد استمر يجرى الرواتب التى كان أبوه يجريها على العلماء والأدباء والندماء ، كما استمع إلى الشعر ووصل الشعراء .

عبد الرحمن بن شنجول

قلد الخليفة هشام الحجابة لعبدالرحمن بن منصور ، وأنعم عليه بالخلع السلطانية ، وكانت أمه ابنة لملك «نبرة» تزوجها «المنصور» وأنجب منها ، وقد أسلمت وتسمت باسم «عبدة» ولأنه أشبه جده لأمه المسمى «شأنجة» لقب بشنجول أو شأنجة الصغير .

ولم يكن الشعب يميل إلى «عبدالرحمن» لما فيه من دماء نصرانية ولانحراف سلوكه ، ولأنه جرى على منهج أبيه وأخيه فى الحجر على الخليفة هشام مع الاستبداد بالرأى وإن مال هو إلى التودد إلى الخليفة ومخالطته ، وقد منحه الخليفة لقب المأمون ناصر الدولة بعد عشرة أيام من ولايته ، ليس هذا فحسب ، بل إن عبدالرحمن جرؤ على ما لم يجرؤ

عليه أحد لا المنصور ولا عبدالمملك ، حين نجح بعد محاولات فى استصدار مرسوم من الخليفة بتعيينه ولياً للعهد من بعده ، لتنتقل رسوم الخلافة من أسرة بنى أمية إلى أسرة بنى عامر ، وأقر فقهاء قرطبة وعلماءها هذا التحول وزكاه الوزراء والقضاة والقادة ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة (٣٩٩هـ = ١٠٠٨م) ومضى «عبدالرحمن» أبعد من ذلك حين عين ابنه الطفل فى خطة الحجابة ولقبه سيف الدولة ، ثم اتخذ قراراً جلب عليه كثيراً من السخط حين طلب من أكابر الموظفين ورجال الدولة خلع القلائس الطويلة التى يتميزون بها لأنها لبس الأندلسيين ، وتغطية الرأس بالعمائم التى هى لباس البربر فأذعن هؤلاء كارهين .

فكر عبدالرحمن أن يشغل الناس بالغزو ، فقرر أن يتوجه إلى جليقية رغم تحذيره من سوء الأحوال الجوية ومن انقلاب قد يقوم به المروانية ضده ، لكنه صمم وسار بالجيش نحو طليطلة ، ومنها إلى جليقية وسط أمطار وبرد شديدين وكان يمارس هوايته فى اللهو والشراب ، وقد اخترق مملكة ليون قبل أن يصل إلى جليقية ، فتحصن الأعداء برعوس الجسبال ، ولم يجد عبدالرحمن سبيلاً إلى مقاتلتهم بسبب كثرة الثلوج وفيضان الأنهار ، فاضطر إلى أن يعود دون أن يفعل شيئاً .

وعند وصوله إلى طليطلة جاءته الأنباء تفيد أن انقلاباً قد حدث فى قرطبة وأن الثوار استولوا على مدينة الزاهرة فاضطربت صفوفهم ، واضطر عبدالرحمن إلى أن يعود عن طريق قلعة رباح ، ولم يلتفت إلى نصيح من طلب منه البقاء فى طليطلة ، لاعتقاده أن الناس سترحب به إذا رآه يقترب من قرطبة .

وكان السبب الرئيسى للثورة هو استبداد بنى عامر وقهرهم للناس استناداً إلى قوة قوامها البربر والصقالبة ، ثم كانت ولاية عبدالرحمن للعهد واستشاره برسوم الخلافة والحكم هى الشرارة التى انتقلت منها نيران الثورة إلى كل العناصر الناقمة ، وعلى رأسهم بنو أمية ، وكان المخطط للثورة والمتابع لمراحل تنفيذها «الزلفاء»

والدة عبدالمملك - التى اعتقدت أن «شنجول» سم ابنها - ثم فتى أموى اسمه «محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر» كان عبدالمملك قد أعدم أباه .

لم يكن المروانية وحدهم يرغبون فى القضاء على العامريين ، وإنما كان معهم كل العناصر الناقمة من البيوت العربية مضرية أو يمنية ، يؤازرهم كل طبقات الشعب ، وأحكم هؤلاء جميعاً خطتهم وانتهزوا فرصة خروج عبدالرحمن للغزو ومعه معظم الجيش ليقوموا بالتنفيذ ، وفى يوم (١٦ من جمادى الأولى ٢٩٩هـ = ١٥ من يناير ١٠٠٩م) جاءت الأنباء بأن عبدالرحمن عبر بجيشه إلى أرض النصارى ، فقام محمد بن هشام بإزالة ضربته ، وهجم على قصر

قرطبة وقتل صاحب المدينة ، والتف حوله الساخطون ، ثم اقتحم سجن العامرية وأخرج من فيه ، واجتمع حوله المروانية وانضم إليه الناس من كل حذب وصوب ، وبعد أن سيطر ابن عبدالجبار على القصر واستولى على كل ما فيه من سلاح وغيره ، طلب من الخليفة هشام أن يخلع نفسه فوافق ، وانتهت بذلك خلافته الصورية التى دامت (٣٣) سنة وتولى الأمر «محمد بن هشام ابن عبدالجبار» وتلقب بالمهدى فى (١٧ من جمادى الآخرة ٣٩٩هـ = ١٦ من فبراير ١٠٠٩م) وجاءه الناس مهنيين ، وما شعروا أن تلك هى بداية الفتنة التى ستطيح ليس بالدولة العامرية وحدها بل وبخلافة بكل ما تمثله .



وفى اليوم التالى قام الشائرون بهدم مدينة الزاهرة وقصورها ، وأحست الحامية المنوط بها الدفاع عنها أن المقاومة غير مجدية ففتحو أبواب المدينة شريطة أن يؤمنهم المهدي ، وتم نهب القصور والاستيلاء على كل ما كان فيها من متاع وجواهر ، ولم يكتف المهدي بذلك وإنما قام بهدم كل مباني مدينة الزاهرة وأسوارها بعد أن استولى على كل ما فيها من خزائن وأموال وتحف حرصاً منه على إزالة كل آثار بنى عامر ، وأصبحت المدينة أطلالا ، وتحولت إلى أثر بعد عين . وقد حاول «عبدالرحمن» وهو

فى «طليطلة» بعد أن بلغته أخبار الثورة أن يتنازل عن ولاية العهد مكتفياً بالحجابة ، فلم يلتفت إليه أحد ثم سار إلى قرطبة ، ولما اقترب منها تركه جند البربر وفروا فى جنح الظلام ، ثم تمكن الخليفة الجديد من مطاردته وإلقاء القبض عليه وهو مختبئ فى أحد الأديرة ، وقتله فى (٣ من رجب ٣٩٩هـ = ٣ من مارس ١٠٠٩م) .

وهكذا انتظر الشعب أول فرصة وأطاح بالطغيان المستبد الذى فرضه العامريون ، ولم يشفع لذلك النظام ما تحقق على يدى المنصور من أمن واستقرار عم ربيع

سقوط الخلافة الأندلسية

وقيام دولة بنى حمود

[٣٩٩ - ٤٢٢هـ = ١٠٠٩ - ١٠٣١م]

الأندلس وكانت تلك الثورة بداية مرحلة من الفتن والفوضى الشاملة التى أنهت وجود الحكومة المركزية ، وقضت على الخلافة الإسلامية ، ومزقت الأمة وجعلتها أشلاء متناثرة .

ولم يكن محمد بن هشام بن عبدالجبار شخصاً مناسباً لهذه الفترة ، إذ كان قليل التفكير لا يعرف شيئاً عن الدولة وشئونها أحاط نفسه بطائفة على شاكلته لا تحسن غير النهب والسرقة ولم يكن يحركهم إلا شىء واحد هو الانتقام من العامريين ، وإهانة البربر ، عقاباً لهم على تأييدهم بنى عامر .

استولى المهدي على الخلافة وقد ترتب على ذلك انطلاق ذوى الأغراض ، كل يحاول نيل نصيبه من البناء المتداعى .

فهناك بنو أمية يرون أنفسهم أصحاب الحق الشرعى ، وهناك الفتيان العامريون والصقالبة والجند المرتزقة وهم قوة لا يستهان بها ، وهناك البربر الذين تضاعفت أعدادهم منذ عهد المنصور بعد أن استقدمهم من عدوة المغرب ، فكسبوا المال الكثير ، واتخذوا الأندلس وطناً لهم ، وأبلوا بلاء	حسناً فى الجهاد وحماية هذا الوطن ، وهناك أيضاً العامة من الناس الذين التفوا حول الخليفة الجديد ، دون أن تكون لهم أغراض ثابتة ، وإنما نزعاتهم متباينة وأهواؤهم متقلبة .	بدا المهدي عهده بالشدة فى التعامل مع البربر واحتقارهم ونزع سلاحهم وسبهم ، وانتقلت هذه	الروح منه إلى العامة ، فهاجموا البربر ونهبوا دورهم وأذوهم ، فشحت نفوس هؤلاء بالغضب ، كما لجأ المهدي إلى نفى بعض الفتيان الصقالبة ، فلجئوا إلى أطراف الأندلس وعادوه ولم يسالهم منهم إلا «واضح» الذى تولى مدينة سالم والثغر الأوسط .
---	--	---	--

أخرجه وأخفاه فى بعض منازل قرطبة ، وزاد فاستغل وفاة رجل ذمى يشبه هشام المؤيد إلى حد كبير ، وأعلن أن الخليفة المؤيد قد مات ، وأشهد على ذلك الوزراء والفقهاء ، وسخر الناس من هذه الخطوة لأنهم يعلمون أن هشاماً الذى دفنوه لم يمت .

ولما شعر «المهدي» أن الأمور قد استقرت له بالغ فى استهتاره وارتكابه الموبقات ، وبلغ الأمر مداه حين قتل من كان قد اختاره ولياً للعهد ضمن آخرين ، وحين أخرج من الجيش سبعة آلاف جندي وقطع رواتبهم فأصبحوا من أهم عناصر الشغب ، وحين بالغ فى اضطهاده للبربر حتى أصبح ذلك حديث الناس فى كل مكان ، بل وصل به الأمر إلى أن منع زعيمهم «زاوى بن زيرى الصنهاجى» من دخول القصر وأذله فخافه البربر وكسب عداوتهم ، فى (رجب ٣٩٩هـ = أواخر مارس ١٠٠٩م) ثم أراد إخراج البربر الذين كانوا فى خدمة المنصور من قرطبة ، فرفضوا ، وجرى صراع بين البربر والأندلسيين وضاع جيش الدولة فى هذا الصراع ، وحرمت الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تخصص للدفاع عنها .

كان هشام بن سليمان بن الناصر على رأس الناقمين على

المهدي ، فقد كان يخشى مغبة تهوره على كل بنى أمية وانضم إليه جماعة يتقدمهم الفتيان العامريون والبربر وحاصروا محمد بن هشام ابن عبدالجبار فى قصره ، وجرى قتال بينه وبينهم انتهى بهزيمة البربر ودمرت بيوتهم ونهبت واضطروا للانسحاب إلى بعض ضواحي قرطبة ثم خشى المهدي سوء العاقبة فعفا عنهم وأمنهم ، لكنهم اتجهوا شمالاً نحو قلعة رباح وبدءوا ينظمون صفوفوهم والتفوا حول أموى اسمه «سليمان بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر» ورشحوه لتولى الخلافة بدلا من المهدي ، ولقبوه بالمستعين بالله ، واستعانوا على أمرهم بأمر قشتالة النصرانى ، وهزموا قوات تابعة للمهدي بالتعاون مع هذا الأمير ، وأصبح هناك خليفتان ، واحد فى قرطبة والآخر على رأس البربر .

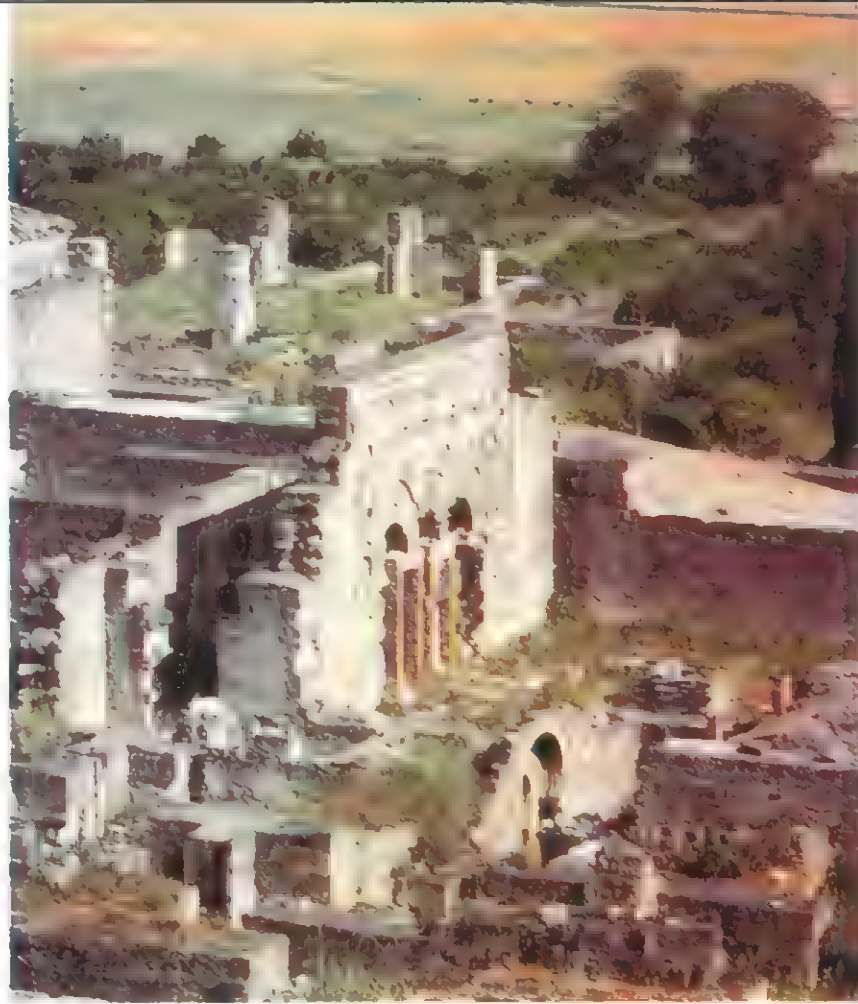
عرف المهدي ما تعرض له جنده من هزيمة فأخذ فى تحصين قرطبة ونظم قواته وانضمت إليه قوات «واضح الفتى» وتوجه إليه سليمان ابن الحكم على رأس قوات البربر وقوات أمير قشتالة والتقى الفريقان فى (١١ من ربيع الأول ٤٠٠هـ = ٥ من نوفمبر ١٠٠٩م) ، عند مكان يسمى «قنتيش» إلى الشمال من بلدة القليعة عند ملتقى نهر أرملات بالوادى الكبير ، وانتهت المعركة بهزيمة المهدي وقتل الآلاف

من أعوانه وفرار نفر من الأندلسيين الصقالبة إلى شرقى الأندلس واستقرارهم فى «دانية» ، وقتل البربر الكثير من أهل قرطبة ، ومن بين هؤلاء العالم الجليل «أبو الوليد الفرضى» وأصبح «زاوى بن زيرى» سيد الموقف .

لأما المهدي فقد حاول من جانبه تدارك الأمر ، فلجأ إلى حيلة سخيفة حين أظهر الخليفة هشاماً المؤيد الذى كان قد زعم أنه مات وأجرى مراسم دفنه ثم بعث إلى البربر يخبرهم أن هشاماً هو الخليفة الشرعى وأنه هو - يعنى المهدي - نائبه ، لكن البربر رفضوا ذلك وأعلنوا تمسكهم بسليمان وأدخلوه القصر وبايعوه بالخلافة ولقبوه بالمستعين بالله .

فر المهدي إلى طليطلة ؛ ليدير للعودة إلى الحكم من جديد وكان معه «واضح الفتى» العامرى الذى توجه إلى «طرطوشة» من مدن الثغر الأعلى ، وطلب عون أمير برشلونة وغيره من زعماء النصرارى ، وحصل على موافقتهم بشروط باهظة منها أن يستولوا على ما يغمونه من سلاح وأن تسلم لهم مدينة سالم . . سار النصرارى ومعهم واضح إلى قرطبة وانضم إليهم المهدي والتقوا بقوات البربر والمستعين بالله ، وحدثت موقعة هائلة فى مكان

ضواحي قرطبة وهما قائدا الجماعة العلوية ويتميان إلى الإدارة وهما عريبان من حيث النسب ، بربريان من حيث النشأة والعصية واللغة، وأخذ ينظم شؤون الدولة واحتل البربر المناصب الرئيسية ، ثم أراد سليمان إرضاءهم من ناحية وإبعادهم عن قرطبة من ناحية أخرى ، فأقطعهم كور الأندلس -وكانت ست قبائل رئيسية- كما ولي «علي بن حمود» ثغر سبتة ، وأخاه القاسم على ثغور الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، ومعنى ذلك أن البربر أصبحت لهم السيطرة على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى .



من ناحية أخرى رأى الفتيان العامريون سيطرة البربر ففر معظمهم إلى شرق الأندلس وأنشئوا هناك حكومات محلية ، حيث حاول بعضهم بزعة الفتي «خيران» الاستقرار في المرية ومرسية ، وحاول بعضهم الآخر الاستقرار في دانية والجزائر الشرقية خاصة بني برزال وبني يفرن ، أما «زاوي بن زيري» و«حبوس بن ماكس» الصنهاجيان فقد استقروا في غرناطة، وهكذا تمزقت البلاد وانتشرت الفوضى ، وعمت الفتن طوال فترة سليمان الأخيرة التي لم تزد على ثلاث سنوات .

٤٠٣هـ = مايو ١٠١٣م) دخل البربر على إثرها قرطبة وقتلوا الكثيرين ولم يرحموا حتى النساء والأطفال، بل ارتكبوا أشنع ضروب الإثم حين اغتصبوا النساء والبنات وأحرقوا الدور ، وتعرضت قرطبة لمحنة لاتعادلها محنة ، وفي اليوم التالي دخل سليمان المستعين قصر قرطبة، واستدعى «هشام المؤيد» وعنفه على موقفه ، ثم أمر بحبسه .

استقر الأمر لسليمان ، فأضاف إلى ألقابه «الظافر بالله» بعد «المستعين» ، وأنزل كلا من «علي» و«القاسم» ابني حمود بشقندة من

أنه يواجه أمراً يستحيل إصلاحه فقرر الهرب ، لكن بعض كبار الجند عرفوا نيته ، فعاتبوه على تبديد الأموال وسوء التصرف ثم قتلوه واستولوا على أموال كان ينوى الهروب بها ، وتولى قاتله الحجابة، وهكذا أصبح القتل وسيلة يلجأ إليها كل من يبغى التخلص من صاحبه .

بعد ذلك جرت محاولات فاشلة للصلح بين الأطراف ، ثم حدث أمر جدد إشعال النار هو قيام أهل قرطبة بقتل بعض زعماء البربر ، وترتب على ذلك قيام معركة هائلة في ٢٦ من شوال

معهم في خلعتهم للخليفة هشام المؤيد لكن الملك النصراني رفض ذلك .
زحف البربر إلى قرطبة وأخذوا يقتلون الجند ويعيثون فيها فساداً وامتد تخريبهم إلى الجنوب حتى وصلوا إلى ضواحي غرناطة ومالقه ، ولم يبق في طاعة هشام إلا قرطبة وما حولها وتمسك البربر بعودة سليمان .

في هذه الأثناء وصلت إلى العاصمة سفارة من ملك قشتالة تطلب تسليم الحصون التي فتحها المسلمون أيام الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر وغيره ،



يسمى «عقبة البقر» على بعد (٢٠ كم) شمال قرطبة في (شوال ٤٠٠هـ = مايو ١٠١٠م) وانتهى الأمر بهزيمة البربر وفرار سليمان المستعين ، وعاد زاوي بن زيري إلى قرطبة حيث أخذه أهله وانسحب إلى الجنوب وفعل البربر مثلما فعل .
رجع المهدي إلى قرطبة وبدأ يحصنها ويعدها للدفاع بينما استعد سليمان والبربر لاستئناف الصراع على قرطبة ، في هذه الأونة ضاق الفتيان العامريون - وفيهم واضح- من تصرفات المهدي وسلوكه ، فتآمروا عليه وأخرجوا هشاماً المؤيد من محبسه وولوه الخلافة للمرة الثالثة وأتوا بالمهدي وضربوا عنقه بين يدي هشام المؤيد في (ذى الحجة سنة ٤٠٠هـ = ٢٣ يوليو ١٠٠١م) وبذلك استرد هشام الخلافة ليكون العوبة في يد الفتيان العامريين ، وتولى واضح حجابته وأرسل إلى سليمان المستعين وإلى البربر يدعوهم إلى طاعة الخليفة الجديد ، فلم يقبل البربر دعوته وأعلنوا تمسكهم بسليمان .

حاول البربر وسليمان الاستعانة بنصارى قشتالة مرة أخرى وعرضوا على ملكها تسليمه الحصون الأمامية التي اقتحمها الخليفة الحكم والمنصور بن أبي عامر ، إذا وقف

دولة بني حمود

كان تمزق الأندلس بهذه الصورة فرصة يقتنصها من يريد ، ولهذا كتب «علي بن حمود» صاحب سبته إلى «خيران» يزعم أنه تلقى رسالة من «هشام المؤيد» يوليه فيها عهده ، ويطلب منه إنقاذه من البربر ومن سليمان المستعين والتف حول «ابن حمود» بعض الأعوان ، وعبر بهم إلى الجزيرة الخضراء بناء على طلب خيران ، واستولوا معاً على بعض البلاد ، وقرراً الزحف على قرطبة يعاونهما بربر غرناطة ، واستعد سليمان لقتالهم ، ونشبت بينهما معركة في مكان قريب من قرطبة وانتهى الأمر بهزيمة سليمان ووقوعه في الأسر .

بعد ذلك دخل علي بن حمود قرطبة وبويع بالخلافة في (محرم ٤٠٧هـ = أول يوليو ١٠١٦م) ، وأعلن وفاة هشام المؤيد ، وقتل سليمان وأباه وأخاه ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وبموت سليمان انتهت الخلافة الأموية بالأندلس بعد حكم دام (٢٦٨) منذ وصل إليها عبدالرحمن الداخل ، وبدأت خلافة الحموديين الأدارسة .

قبض علي بن حمود على الحكم واشتد في معاملة البربر وواجه أية محاولة للثورة بمنتهى الشدة سواء قام بها العرب أو البربر ، وفي الوقت نفسه أحسن معاملة القرطبيين ، يعاونه في ذلك مجموعة من أعوان الخلافة السابقة من أمثال أبي الحزم بن جهور وابن برد .

لكن الأمور ما لبثت أن اتخذت خطاً جديداً ، ذلك أن خيران العامري دخل قرطبة فلم يجد هشام المؤيد حياً ، وخشى سطوة علي بن حمود فغادر قرطبة ، وأعلن العصيان

واتجه ناحية شرق الأندلس ، حيث يجتمع الزعماء العامريون ، وأعاد دعوة بني أمية في شخص رجل منهم اسمه عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله من أحفاد عبدالرحمن الناصر ، وبأعيه خيران بالخلافة ولقب بالمرتضى ، وانضمت إليه ولايات سرقسطة والثغر الأعلى وشاطبه وبلنسية وطرطوشة وغيرها وسارت قوات هؤلاء نحو

غرناطة لمواجهة قوات صنهاجة ، وجرت معركة انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل المرتضى ، وكان «علي بن حمود» قد غير سلوكه ، مع أهل قرطبة بسبب علمه بميلهم إلى المرتضى فنزع سلاحهم وصادر أموالهم واعتقل زعماءهم وعلى رأسهم «أبو الحزم بن جهور» ، ثم تربص جماعة من الصقالبة بعلي هذا ، وقتلوه في الحمام في (الثاني من ذي القعدة سنة ٤٠٨هـ = ٢٣ من مارس ١٠١٨م) بعد خلافة دامت عامًا وتسعة أشهر .

بعث زعماء زناته بخبر مقتل «علي» لأخيه القاسم الذي كان واليًا على إشبيلية ، فخف مسرعًا ، وبويع بالخلافة في الثامن من الشهر نفسه وتلقب بالمأمون ، وقد مال في سياسته إلى اللين والإحسان إلى الناس وحاول التقرب إلى الفتيان العامريين ، فولّى زهير العامري على جيان وقلعة رباح لكنه لم يستطع التخلص من سيطرة البربر عليه ، فتآمر عليه أبناء أخيه ، وزحف يحيى بن علي بن حمود على قرطبة ، وبويع بالخلافة في جمادى الأولى سنة (٤١٢هـ = ١٠٢١م) وتلقب بالمعتلى بالله ، أما القاسم فقد استقر به المقام في إشبيلية وتلقب بالخلافة أيضًا .

والعجيب أن كلا الرجلين اعترف لصاحبه بالخلافة ، ولم يسمع قبل ذلك بخليفتين تصالحا واعترف كل منهما بصاحبه من قبل .

ثم لم يلبث أن دعا البربر القاسم إلى قرطبة ، وولوه الخلافة في (١٨ من ذي القعدة من العام نفسه) ،

ولقب بأأمير المؤمنين ، ولكن الرجل لم يكن موفقًا في سياسته ، فقد أعان البربر على أهل قرطبة فعاملوهم معاملة قاسية وطاردوهم وأهانوهم ، وجرت معارك متفرقة بين الطائفتين ، ثم جرت معركة كبيرة فاصلة انتهت بانتصار القرطبيين وتمزيق البرابرة ، واضطر القاسم إلى الرجوع إلى إشبيلية ، وجرت تطورات عاد البربر بعدها وبايعوا يحيى بن علي بن حمود ولقبوه بالمعتلى بالله ، أما القاسم فقد سجن وبقي في محبسه حتى قتل خنقًا بعد ذلك بفترة سنة (٤٣١هـ = ١٠٤٠م) .

كان أهل قرطبة قد سئموا سلوك البربر وقتالهم ، وقرروا رد الأمر لبني أمية ، وعقدت جلسة لهذا الغرض في المسجد الجامع تمت فيها مبايعة عبدالرحمن بن هشام في (١٦ من رمضان سنة ٤١٤هـ = ديسمبر سنة ١٠٢٣م) ، ولقب بالمستظهر بالله ، وتولى وزارته بعض القدامى من وزراء بني أمية ، بيد أن الخليفة الجديد استفتح عهده بإلقاء القبض على عدد من الزعماء والأكابر ، واستقبل فرسان البربر وأحسن وفادتهم ، فهاجت العامة وامتلثوا غيظًا ، وهجموا على القصر وقتلوا كل من صادفهم ، أما عبدالرحمن فقد اختفى وظهر ابن عمه «محمد ابن عبدالرحمن بن

عبدالله بن الناصر» وبويع بالخلافة وتلقب بالمستكفي بالله وأتى عبدالرحمن المستظهر وقتله في (٣ من ذي القعدة سنة ٤١٤هـ = ١٧ من يناير سنة ١٠٢٤م) .

كان المستكفي سيئ التدبير ميالا إلى البطالة والمجون ، وفي عهده تهدمت القصور الناصرية ، وأتى على مدينة الزاهرة من أساسها ، واضطهد معظم البارزين من الساسة والمفكرين ، فنادى جميعهم بخلعه واضطر إلى مغادرة قرطبة في زى امرأة ، وتمكن بعض مرافقيه من قتله في ضاحية قرطبة .

وجدير بالذكر أن محمد المستكفي هذا هو والد «ولادة» الشاعرة المعروفة .

رجعت الفوضى التي لا ضابط لها إلى قرطبة وجاء إليها «يحيى ابن علي بن حمود» ، و«خيران» و«زهير» العامريان ، وتم الاتفاق بين الجميع يقودهم أبو الحزم بن

إبريق صغير من البرونز - أندلس



جهور على تولية أموى ، ووقع اختيارهم على «هشام بن محمد» الذي بويع ولقب بالمعتد بالله ، بيد أنه ألقى بمقاليد الأمور كلها إلى رجل من المستبدين تولى وزارته اسمه «سعيد القزاز» بالغ في اضطهاد زعماء البيوت وإهانتهم وشغل الخليفة نفسه عن أمور الحكم بشرابه ومجونه ، وضاعت هيبة الخلافة تمامًا .

ثم اضطّر القرطبيون الناقمون إلى الفتك بالوزير «سعيد» في (ذى القعدة ٤٢٢هـ = نوفمبر ١٠٣١م) ، ثم ساروا إلى القصر يتزعمهم «أمية ابن عبدالرحمن العراقي» من أحفاد «الناصر» ونهبوا أجنحة القصر .

وانتهى الأمر باتفاق رأى الناس جميعًا بزعمامة أبي الحزم بن جهور على التخلص من بني أمية ، وإبطال رسوم الخلافة كلها ، وإجلاء كل الأمويين عن مدينة قرطبة ، فليس هناك من يستحق الخلافة ، وينبغي أن يتحول الحكم إلى شورى بأيدي الوزراء وصفوة الزعماء أو من اسماهم «ابن حزم» «الجماعة» .

تولى ابن جهور تنفيذ الأمر بمنتهى الحزم حتى أجلى الأمويين عن المدينة ومحا رسومهم تمامًا ، وبهذا انتهت معالم الخلافة الأموية ، وانقطع ذكرها في كل من الأندلس والمغرب .



تكون المجتمع الأندلسي من مجموعة من العناصر المتباينة انصهرت جميعها في بوتقة واحدة وكونت المجتمع الأندلسي وهذه العناصر هي :

- (١) العرب ، وهم مجموعتان :
 - المضرية ، واليمنية ، وقد استمر الصراع بينهما في الأندلس مثلما كان في المشرق ، وتتفرع المجموعة المضرية إلى أربعة وعشرين فرعاً انتشرت في بلاد الأندلس المختلفة .
 - أما المجموعة اليمينية فقد وصل فروعها إلى واحد وعشرين فرعاً
- (٢) البربر ، وهؤلاء كونوا السواد الأعظم من الجيش الفاتح وفاقوا أعدادهم أعداد العرب ، وينتمي هؤلاء إلى زناتة ومكناسة
- (٣) المسالمة والمولدون ، أما المسالمة أو الأسالمة أو أسالمة أهل
- وصنهاجة ومصمودة وهوازة ومديونة وكثامة ، ومغيلة ونفزة وهؤلاء تركز وجودهم في المناطق الجبلية خاصة في الشمال الغربي ووسط الأندلس وأراضى السهلة ووادي الحجاره وإشبيلية وما حولها لتتشابه ظروفها مع ظروف الحياة والبيئة في مواطنهم الأصلية ، واشتغلوا بالزراعة وتربية الماشية ويسّرت لهم مواطنهم في مناطق الحدود وغيرها من المناطق الجبلية القيام بالثورات بعد ذلك .

الذمة فهم الذين دخلوا في عقيدة الإسلام من النصارى . أما المولدون فهم في أرجح الأقوال أبناء المسالمة أو هم نتاج الزواج المشترك بين العرب والبربر من ناحية وبين الإسبان من ناحية أخرى ، ومن الطبيعي أن يكون عدد هؤلاء قليلا في أول الأمر ، ثم يتنامى نتيجة كثرة اعتناق أهل البلاد للإسلام وانتشار ظاهرة الزواج المشترك بين العرب أو البربر وبين من أسلموا حديثاً ، وقد تركز وجود هذا العنصر في الحواضر والمدن الكبرى من شبه الجزيرة .

وكانوا مع العرب هم العنصر الغالب فيها ، وكان هذا سبباً في حدوث نزاع بين هاتين الطائفتين في المستقبل .

(٤) الموالى : مجموعة من عناصر مختلفة تجمع بينها رابطة الولاء بين المولى وسيده أو التابع ومتبوعه ، ويرجع هؤلاء إلى أصول مختلفة بعضهم رافق الشاميين الذين دخلوا الأندلس وعرفوا لذلك باسم موالى الشاميين ، وبعضهم كان من البربر الذى أسلموا ووافقوا سادتهم في دخول الأندلس فسموا باسم الموالى البلديين ، وبعضهم يرجع لأصول محلية إسبانية ، وموالى الاصطناع

أو النعمة الذين أنعم عليهم الأمويون بالولاء اعتزازاً وتقديراً ، بالإضافة إلى الرقيق المشتري ممن أنعم عليه أسياده بالعتق ، وتركز وجود هؤلاء في قرطبة خاصة وفي كورة البيرة (غرناطة) وفي جهات متفرقة من أنحاء الأندلس ، وقد شدوا من أزر العرب أولاً ثم انقلبوا عليهم وظهر من بينهم قادة من أمثال بنى عبدة وبنى شهيد وبنى مغيث وبنى جهور .

(٥) الصقلالية : كان يقصد بهذه الكلمة أولاً الشعوب السلافية ، ثم أصبح العرب يطلقونها على الأرقاء الذين يجلبون من الأمم المسيحية ويستخدمون في القصر أو الجيش ، عن طريق الشراء بواسطة تجار اليهود أو عن طريق الحملات العسكرية ، وأول من استجلب الصقلالية «عبدالرحمن بن معاوية» ثم استكثر الأمراء منهم بعد ذلك حتى كونوا جماعة كان لها دور عظيم في أحداث الأندلس ، ووصلت أعدادهم إلى ثمانية عشر ألفاً في قرطبة وحدها ، وبلغوا أقصى نفوذ لهم في عهد «عبدالرحمن الناصر» .

هذه هي العناصر الإسلامية ، وإلى جانبها وجد في المجتمع الأندلسي عنصران من غير المسلمين أو من أهل الذمة هما :

(١) النصارى : وشكل هؤلاء عدداً كبيراً استوطن أعداد كبيرة منهم مدناً وقرى كثيرة في الأندلس واستقر في «طليطلة» و«برشلونة» و«غرناطة» و«ماردة» وتمتعوا جميعاً بالرعاية ومنحتهم الدولة الحرية الكاملة دينية واجتماعية حتى أنشئ لهم منصب لإدارة شئونهم عرف صاحبه بالقومس .

ووصل بعضهم إلى المناصب العليا في الدولة ، وتأثر هؤلاء بدورهم بثقافة العرب ولغتهم وأسلوب حياتهم وأصبحوا لهذا يسمون بالمستعربين .

(٢) اليهود ، وقد استوطن عدد كبير منهم في قرطبة ولهم فيها باب يعرف باسمهم ، وسكن عدد كبير آخر في «إشبيلية» ولهم مشاركة ملحوظة في فتح الأندلس وفي أحداثها السياسية وفي إدارة المدن المفتوحة ، كما استوطنت جماعة كبيرة منهم في «طليطلة» وفي «برشلونة» وفي «طركونة» ، وقد مارس جميعهم شعائرهم الدينية في بيعهم بكل حرية ، وكانت علاقاتهم بالمسلمين طيبة فاندمجوا في المجتمع الإسلامي وتعلموا العربية وتبنوا تقاليد المسلمين وعمل بعضهم في بلاط الأمويين وتولوا مناصب مهمة في الدولة الإسلامية ، واحتل بعضهم الطبقات العليا في المجتمع الأندلسي .



- رئاسة الإقليم :

كانت الأندلس تتبع إفريقية عقب الفتح مباشرة ، وكان والى إفريقية يقوم باختيار حاكم الأندلس ، ثم رأى الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» أن تكون الأندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة إدراكاً منه لأهمية الأندلس ، وللدور الذى تقوم به فى الفتوحات ولصراعها مع ملوك الفرنجة . ولما توفى «عمر بن عبدالعزيز» عاد تعيين والى «الأندلس» إلى والى إفريقية لكن بمصادقة الخليفة ، وبعد وقعة بلاط الشهداء عادت الخلافة إلى تعيين والى «الأندلس» من جديد ، ولما اضطرت الأمور أصبح والى إفريقية هو الذى يعينه حيناً وأحياناً جماعة الزعماء والقادة فى شبه الجزيرة ، فقد استقر رأيهم مثلاً على تعيين يوسف بن عبدالرحمن الفهري سنة (١٢٩هـ = ٧٤٧م) خشية تفاقم الفتن دون مصادقة لا من والى إفريقية ولا من الخلافة .

ثم جاء بنو أمية لحكم الأندلس واكتفوا بلقب الإمارة برغم أن بلاطهم كان ينافس بلاط العباسيين فى قوته وبهائه إلى أن جاء عهد «عبدالرحمن الناصر» ورأى أن

الأوضاع قد تغيرت وأن الفاطميين قد أقاموا لهم خلافة فى المغرب فأصدر مرسومًا بتحويل الإمارة الأموية إلى خلافة ، وتلقب هو نفسه بلقب أمير المؤمنين ، وبلغت الخلافة الأندلسية أوج نفوذها السياسى والأدبى فى عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ثم جاء «محمد بن أبى عامر» فجعل نفسه حاكمًا مطلقًا على الأندلس واتخذ سمات الملك وتلقب بالحاجب

المنصور ، وأضحت الخلافة فى زمنه وزمن أبنائه اسمًا بلا مسمى . ثم تبوأ «محمد بن هشام» الملقب بالمهدى الخلافة لتنتهى ثنائية السلطة بين الأمويين والعامريين ، لكن ذلك كان بداية فترة مشحونة بالفتن والفوضى ، وقامت خلافة فى أكثر من مدينة فى مالقة وقرطبة وإشبيلية وغيرها ، وانتهى الأمر بتمزق الأندلس إلى ولايات ومدن مستقلة وظهر ما يعرف بدول الطوائف .

* الوزارة فى الأندلس :

لم يلجأ الأمويون فى الأندلس إلى نظام الوزارة باختصاصاته التى يعرفها المشاركة ، واعتمدوا فى تسيير أمور دولتهم على رجال من البيوت الشهيرة دون أن يمنحهم ألقاباً يعينها ، حتى قادة الجيوش حملوا لقب القائد فى زمن الحملة العسكرية فقط ، ولكن ظهور شخصيات بارزة جعل من الضرورى أن تختص تلك الشخصيات بمهام وألقاب محددة ، لهذا أصبح «عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث» قائد الجيوش ، وحمل مع ذلك لقب الحاجب ، وتولى كل اختصاصات رئيس الوزراء فى المشرق ، وأضحت الحجابة هناك مثل رئاسة الوزارة وأصبح الحاجب الشخصية الثانية بعد الأمير ، كذلك تم توزيع المهام الإدارية بين رجال البيوتات المشهورة ، فهذا خازن (وزير المالية) وهذا للأمن (الشرطة الداخلية) وهذا للمنشآت (الأشغال العامة) .

وحمل هؤلاء لقب الوزير على أنه تشريف ، ومنذ أيام «عبدالرحمن الأوسط» أصبح وزير الأندلس له نفس مهام واختصاصات الوزير فى المشرق ، كما كان هناك وزراء دولة يكلفهم الأمير بما يشاء فى أى وقت . أما أهل البيوتات الذين شغلوا

هذه المناصب فهم موالى بنى أمية وفروعهم ، ثم انضمت إلى هؤلاء أسر قريش الأمراء ، بعضها عربى وبعضها مولد أو مستعرب وكثير من هؤلاء من أصول بربرية من ذوى الكفاءات .

وللأمويين أسلوبهم فى إقالة الوزراء ، ذلك أن من ترفع وسادته من بيت الوزارة يعتبر مقالاً ، وأحياناً كان يمنح بعض الموظفين الكبار مثل حاجب المدينة أى المحافظ لقب الوزير ، وعندئذ كان يدعى الوزير صاحب المدينة .

وكانت الوظيفة الكبيرة فى الأندلس يطلق عليها لقب «خطة» فيقال «خطة الوزير» أو «خطة الكتابة» (الإنشاء) أو خطة المظالم (الشكاوى) أو «خطة القيادة» ، وكانت خطة القضاء من الخطط الكبرى ، ويقصد بها قضاء قرطبة أو الجماعة ، ولايتولى صاحبها قضاء قرطبة وحدها بل له حق تعيين القضاة أو عزلهم فى المدن والأقاليم الأخرى ، وهؤلاء يعتبرون نواباً عنه ويعتبر هو مرجعهم ، وقاضى الجماعة هو الشخصية الثالثة بعد الأمير والحاجب ، ولذا تطلب الأمر التدقيق عند اختياره ، ورغم مكانة القاضى ، فإن الكثيرين لم يرغبوا فى شغل هذا المنصب ، لأنهم قد يجدون حرجاً فى أداء مهام وظيفتهم ضد كبار الموظفين أو مع

أمير لا ترضيه أعمالهم الحريصة على العدالة وحدها .

وفى أواخر عهد الدولة العامرية تولى الصقالبة الخطط الكبرى ، ثم تولى الفتيان العامريون الحجابة لآخر الخلفاء الأمويين ، واستبدوا بعد ذلك برئاسة المدن والولايات ، وظهر فى عهد الدولة العامرية بدعة جديدة هى إسناد الحجابة إلى الأطفال فقد استصدر عبدالملك - مثلاً - أمراً من الخليفة «هشام» المغلوب على أمره بتعيين ولده الطفل «محمد» فى منصب الحجابة ولقبه بذى الوزارتين . . كذلك استحدثت بالوزارة عدة خطط جديدة مثل خطة خدمة الأسلحة وخدمة الوثائق وخطة خزانة الطب والحكمة . . الخ .

* الجيش والأسطول :

عبر إلى شبه الجزيرة جيش الفتح مكوناً من العرب والبربر ، وقام البربر بدور مهم فى تكوين قوى الأندلس دفاعاً وهجومًا ، ولما كون عبدالرحمن الغافقى جيشه بهدف غزو بلاد الفرنج ، كان البربر من عناصره المهمة ، وبقيت القيادة بيد الضباط العرب ، ثم ظهر خلاف بين العرب والبربر ، بسبب إحساس البربر باستيلاء العرب على القيادة لأنفسهم فقط ثم كانت ثورة البربر فى المغرب وانتقال بلج بن بشر القشيري إلى الأندلس الشئ الذى رجح كفة العرب غير أن الجيش

الأندلسي ما لبث أن انقسم إلى العرب الشاميين وأنصار «بلج» والعرب والبربر المحليين ، وقامت الحرب الأهلية ، إلى أن جاء يوسف ابن عبدالرحمن الفهري فأعاد تنظيم الجيش وأصلحه ، وجعله جيشاً أندلسياً ، يغزو ويرد هجمات نصارى الشمال .

ثم جاء «عبدالرحمن الداخل» فاهتم بالجيش غاية الاهتمام ، وبلغت جنوده المتطورة والمرتزة (١٠٠) ألف مقاتل ، بخلاف الحرس الخاص الذي تكون من (٤٠) ألفاً من الموالى والرقيق والبربر .

وكذلك وضع «عبدالرحمن الداخل» نواة الأسطول الأندلسي ؛ لأنه أقام قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية ، أما قيام الأسطول الأندلسي فيعود إلى ما بعد ذلك عندما قام النورمانيون بغزو ثغور الأندلس فعنيت الحكومة بأمر الأسطول وإنشاء السفن وبالتحصينات البحرية ، كما أقامت أكبر دار لصناعة السفن في مياه الوادي الكبير تجاه إشبيلية .

وقد اكتسب الجيش كثيراً من الدربة والمران في تعامله المستمر مع الثورات والغزوات ، وقد بذل الناصر جهداً كبيراً لتقويته ، ومنحه غاية الاهتمام ، ووفر له الأسلحة والعتاد ، وفي الوقت نفسه اهتم بالأسطول وأنشأ له وحدات جديدة ،

وجعل مدينة ألمرية مركزه الرئيسي ، وبنى بها أكبر دار صناعة ، ووصل عدد الوحدات في زمنه إلى (٢٠٠) سفينة مختلفة الأحجام والأنواع ، بخلاف أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية ، وكان أسطول الناصر من أقوى الأساطيل ، سيطر به على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية .

وفي عهد المنصور بن أبي عامر وصل الجيش الأندلسي إلى أقصى قوته وضخامته وقد اعتمد على البربر الذين استقدمهم من بلاد المغرب وغمرهم بعطاياه ، وكان في جيشه كثير من المرتزة والنصارى من المستعربين ، وقد بنى

المنصور للأندلس قوة لم تعرفها لا من قبل ولا من بعد ، وبلغ عدد الفرسان في زمنه (١٢١٠٠) ، وعدد الرجالة (٢٦٠٠٠) وهذا هو الجيش المرباط الذي كان يتضاعف وقت الصوائف ، وقد وصل في إحداها إلى (٤٦٠٠٠) ، وزاد عدد المشاة حتى تجاوز المائة ألف .

وقد نجحت القوات الإسلامية في السيطرة على مناطق الحدود ؛ بفضل ما تمتعت به من قوة واستعداد ، وكانت الخلافة حريصة على أن توفر لها الأسلحة والمؤن وكل ما تحتاج إليه ، وكان بعض الحصون في هذه الأماكن أشبه ما يكون بمدينة كاملة .

وإلى جانب جيش الحدود كان هناك جيش آخر يقيم في الزهراء يسمى جيش الحضرة يقوده الخليفة بنفسه أو من ينوبه ، وإذا خرج الخليفة بنفسه جمع بين قيادة الجيشين .

وإذا جاء وقت النفير يأمر الخليفة بالاستعداد ، فتبدأ عملية واسعة النطاق تسمى «البروز» ، وتتوافد الجنود من كل ناحية وتنزل في سهل فسيح يسمى «فحص السراوق» إلى الشمال من قرطبة ، ثم يؤتى بسراوق الخليفة ويوضع وسط الفحص ، وتنصب فرق الجنود خيامها ثم تقبل قوات

المتطوعين حسب لوجه الله تعالى ، ويستمر البروز شهراً ، ثم يخرج الخليفة بجيشه ، ويتنقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم إليه جيش الثغور ، وهنا تبدأ الصائفة أي العملية العسكرية الصيفية التي تستمر شهرين أو نحوها في غزوها لأراضي العدو .

* الموارد الاقتصادية

لما فتح المسلمون شبه الجزيرة ، فرضت الضرائب على أساس المساواة بين الناس دون تمييز بين طبقة وأخرى ، وكان خراج الأراضي الزراعية والجزية على أهل الذمة وأخماس الغنائم هي الموارد

الرئيسية للدخل ، وقد قام «يوسف الفهري» بتقسيم الأندلس إلى خمس ولايات وفرض على كل ولاية أن تقدم ثلث دخلها ورفع الجزية عمن توفوا من النصارى ومنحت الحكومة اهتماماً كبيراً للزراعة ، وقد نجحت زراعة المسلمين بفضل التغيرات التي أدخلوها على نظام ملكية الأراضي ، وتنظيم عملية الري في الأندلس ، والعناية بالحدائق والمتنزهات وجلب المياه لها من الجبال .

وقد تنوعت الأراضي في الأندلس بين أراضي خراجية للدولة ، وأراضي أحباس تتبع ولاية الأحباس (الأوقاف) ويشرف عليها قاضي ، وأراضي إقطاع بمعنى أن جيوش الأندلس كانت تتكون من قبائل العرب والبربر التي كانت تقيم في المدن والقرى على أساس إقطاعها أراضيها ، واستمر هذا النظام معمولاً به حتى آخر عهد «المنصور بن أبي عامر» وإن ظل الإقطاع سائداً في مناطق الشجر الأعلى خاصة . بالإضافة إلى هذا وجدت الملكيات الخاصة التي كانت تأتي عن طريق الوراثة أو الهبة أو الشراء .

أما المحاصيل الزراعية فأبرزها: التمر والحبوب بأنواعها والفواكه والزيتون وقصب السكر والموز



والعنب والتفاح والرمان والبرتقال ومحاصيل أخرى مثل: القطن والكتان والتوت ونبات الخلفاء، وقد جلبت بعض هذه المحاصيل من المشرق وأدخلت تحسينات على ما كان قائماً منها زمن الرومان.

كذلك اهتمت الإدارة الأندلسية بالرعى وتربية الماشية، وعנית بتربية البغال باعتبارها الوسيلة المثلى للنقل، والخيول والإبل والغنم والثيران والأبقار، ومما يعكس الاهتمام بالخيول وتربيتها أنه كانت هناك خطة تسمى خطة الخيل يشرف عليها صاحب الخيل، وعرفت الأندلس أيضاً مهنة صيد السمك في السواحل الغربية والشرقية والجنوبية وفي الأنهار الداخلية، ولهذا ازدهرت تجارة السمك في الأندلس.

وعرف المجتمع الأندلسي الصناعة، وراجت فيه صناعة الحدادة والصباغة وحياسة المنسوجات والصباغة، والصناعات الجلدية والخشبية، وصناعة الورق والسفن والأسلحة والسكة والأثاث والفخار والآلات الموسيقية وصناعة ألوان معينة من الطعام كالخبز واستخراج الزيت من الزيتون، وصناعة السلال والشمع والزجاج، كما وجد أصحاب الحرف مثل: الفرانين والخباطين والتجارين والبنائين والعطارين والجزارين والخبالين... الخ، وكان على رأس كل فرقة زعيم يسمى العريف أو الأمين يرتب أمورها وينظم العاملين فيها درجات

حسب مستوى إجادتهم. ومن الطبيعي أن يكون في الأندلس نشاط تجارى، وعناية بالأسواق التجارية، فقد كان في كل مدينة سوق رئيسى يتألف من عدد من الأسواق، وكل طائفة من التجار تتخذ لها مكاناً يجلسون فيه متجاورين، وكانت هناك أسواق للحيوانات وأخرى للنخاسة. الخ، وقد اهتمت الدولة بإقامة شبكة من الطرق البرية والنهرية الداخلية تربط المدن بعضها ببعض لخدمة التجارة. وتعامل التجار مع بعضهم عن طريق تبادل السلع، وأحياناً عن طريق استخدام العملة، كما كانت الصكوك والسفاتيح أو الحوالات من الوسائل الشائعة الاستخدام في الأندلس، وكانت السمسرة من أساليب التعامل الرائجة في

الأسواق، وقام بها اليهود في الغالب، كما كانت وحدات الكيل والميزان من أهم وسائل التعامل التجارى، وكان يشرف عليها صاحب السوق، يتفقد العمل في الأسواق يعاونه مجموعة من الموظفين يمتحنون الباعة بأساليب مختلفة لمعرفة مدى التزامهم بالطرق المشروعة بيعاً وشراءً. وعرفت الأندلس التجارة الخارجية التى تقوم على الصادرات والواردات، فقامت بتصدير التين إلى بعض بلاد المشرق وإلى الهند والصين، والقطن إلى بلاد الشمال الإفريقى، وصدرت الزيت إليها وإلى الدويلات النصرانية في الشمال ومن الصادرات الأندلسية: الحرير ومواد الصباغة وأنواع معينة من المنسوجات والعنبر والطيب وبعض المعادن وبعض الحيوانات.



أما واردات الأندلس فقد تركزت على الأشياء الثمينة والتحف النادرة وبعض المنسوجات الشرقية والصمغ والمواد الغذائية وأهمها القمح.

كما استوردت التمور والفسق والذهب، وكان التعامل مع المغرب خاصة يتم بحرية تامة بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية أو السياسية أحياناً، كما كانت العلاقات وثيقة بين الأندلس وبين بلاد المشرق الإسلامى، وتمت إقامة طرق برية وأخرى بحرية لربط الأندلس بالعالم الخارجى والاتصال به اقتصادياً وفكرياً، وكانت الضرائب تجبى من التجارة الداخلية والخارجية.

* الحركة الفكرية :

لا يوجد في عصر الولاة إلا بعض الآثار الشعرية القليلة التى وردت على ألسنة الزعماء أو الولاة.

وجاء «عبدالرحمن الداخل» وخلف آثاراً من النثر والنظم تعكس تفوقه في هذا الميدان، وكان الداخل فوق براعته الأدبية عالماً بالشرعية، وجاء بعده ابنه «هشام» فكان مبرزاً في الحديث والفقه، وغلب الطابع الدينى على النهضة العلمية في هذه المرحلة، ثم رحل تلاميذ الأندلس إلى المشرق وتعلموا على الإمام مالك ونقلوا عنه كتابه «الموطأ»، وعادوا إلى الأندلس فنشروا مذهب إمامهم بتلك البلاد، وكان الأمير هشام يجعل الإمام مالك فساد ذلك على التمكين لمذهبه في الأندلس.

وفي عهد الحكم بدأت تظهر بوادر النزعة الأدبية إلى جانب العلوم الدينية، وظهر الأدباء والشعراء إلى جانب المحدثين والفقهائ، كما وجد من نبغ في النحو والعروض والأخبار والأنساب وغيرها. وكان الأمير الحكم نفسه أديباً شاعراً، وعرف الأندلس في زمنه شعراء مبرزين من أمثال العالم عباس بن فرناس ويحيى الغزال الجياني.

أما في عهد «عبدالرحمن بن الحكم» فقد بلغت هذه الحركة

الفكرية الأولى ذروتها وظهر كتاب «مُبرزون» ومفسرون ومحدثون وفقهاء وشعراء، وكان الأمير نفسه يتمتع بمواهب أدبية وشعرية، وانتشرت اللغة العربية بين طائفة النصارى المعاهدين، وبرز بعضهم في الكتابة.

وشهد عهد الأمير «محمد بن عبدالرحمن» نهضة أدبية وشعرية ومن أشهر من ظهوروا خلال هذه الفترة الشاعر «عباس بن فرناس» والأديب الفقيه «أبو عمر أحمد بن عبد ربه» صاحب الكتاب المشهور «العقد الفريد»، الذى يعتبر من أمتع كتب الأدب العربى، وكان الأمير عبدالله أيضاً شاعراً بارعاً في العربية حافظاً للغريب من الأخبار.

أما عصر «عبدالرحمن الناصر» فقد زهت فيه العلوم والآداب، وراجت فيه سوق العلم، وظهر أكابر العلماء والشعراء من أمثال «ابن عبد ربه» المشار إليه آنفاً، و«محمد بن عمر بن لبانة» الذى انفرد بالفتيا وحفظ أخبار الأندلس وولى الصلاة فى المسجد الجامع، وكان له حظ موفور فى الفقه والنحو والشعر، ومن محاسن هذا العصر «أبو الحسن جعفر بن عثمان» المعروف بالمصحفى، البليغ المتميز فى النظم والنثر، ومن أعلام هذه الفترة القاضى «منذر بن سعيد البلوطى»، البارع فى علوم

القرآن والسنة ، والمعروف بجودة خطابه وفصاحته وجزالة شعره ، وغير هؤلاء كثيرون ، وقد اتخذ الناصر عدداً كبيراً من هؤلاء العلماء والأدباء حجاباً له ووزراء ، مثل موسى بن محمد بن حدير وعبد الملك بن جهور .

ومن أعظم شعراء عصر «الناصر» أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الإشبيلي الذي غادر الأندلس ولحق ببلاد الخليفة المعز الفاطمي في المهديّة بسبب اتهامه بالكفر والزندقة .

وكان الخليفة نفسه أديباً يهوى الشعر وينظمه ويدني إليه العلماء والأدباء .

وظهر في عهد الناصر أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية التاريخية الأندلسية ، وفي مقدمتهم أحمد بن محمد بن موسى الرازي ومعاصره أبو بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية وأحمد بن موسى العروى .

واستمرت النهضة الفكرية وازدادت قوة في عهد الخليفة الحكم المستنصر ، وكان نفسه أديباً عالمًا ، ولذلك أقام جامعة قرطبة ، وحشد لها الأساتذة ، وأنشأ المكتبة الأموية الكبرى ، وبذل جهوداً خارقة وأموالاً عظيمة حتى يجمع لها آلاف الكتب في مختلف العلوم والفنون ،

وظهرت أيضاً المكتبات العامة والخاصة ، واحتشد حول بلاط الحكم مجموعة من أكابر العلماء منهم «أبو علي القالي» ، والأديب المؤرخ «محمد بن يوسف الحجاري» ، والفيلسوف «ربيع بن زيد» . الخ .

ومن شعراء بلاط الحكم المعدودين: طاهر بن محمد البغدادي ، ويحيى بن هذيل ، ويوسف بن هارون الرمادي القرطبي ، الهجاء المعروف بأبي جنيش .

ومن نبغ في هذه الفترة: أعظم علماء اللغة في الأندلس «أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي» النحوي الإشبيلي .

أما المستنصر نفسه فلم يكن متمكناً في علم الأنساب وفي العلوم الشرعية فحسب وإنما كان أديباً شاعراً ينظم الشعر الجيد .



أما المنصور بن أبي عامر فقد كان بحكم نشأته عالمًا متمكناً في علوم الشريعة والأدب وكان محباً لمجالس العلماء والأدباء ، وبلغ به الأمر أن يصطحب معه طائفة من الشعراء والأدباء في غزواته ، وكان أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادي شاعره الأثير ، وكان ذلك الرجل فوق شاعريته متمكناً في اللغة والأدب والتاريخ ، وهو الذي أجاز المنصور بخمسة آلاف دينار على كتاب ألفه في التاريخ والأدب وأمر بقراءة كتابه في مسجد الزاهرة .

ومن أعظم شعراء الأندلس في عهد المنصور «أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلی» الذي قال عنه «ابن حزم»: «لم يكن في الأندلس أشعر من ابن دراج» .

ومن أكابر الفقهاء والحفاظ عبدالرحمن بن قطيس قاضي الجماعة في قرطبة ، وكان إماماً في الحديث والسير والأخبار ، شغوفاً بجميع الكتب ، مشهوراً بالصلابة في الحق .

ومن الطبيعي أن تنكمش الحركة الفكرية بعد سقوط الخلافة ، لانشغال الأمة بما دهاها من الفتن ، ومع ذلك فقد كان بين الخلفاء والولاة خلال هذه الفترة من يتذوق الشعر وينظمه من أمثال الخليفة المستعين ، والخليفة المستظهر وغيرهما .

الأندلس بعد سقوط الخلافة

١ - عصر ملوك الطوائف

(٤٠٠ - ٤٨٤ هـ = ١٠٠٩ - ١٠٩١ م)

ترتب على سقوط الخلافة والدولة الأموية انقسام الأندلس إلى دويلات متنازعة ، واستقلال كل أمير بناحيته ، وإعلان نفسه ملكاً ، ودخلت البلاد بذلك في عصر جديد عرف باسم عصر ملوك «الطوائف» أو عصر الفرق .

وقد انضوت هذه الدويلات تحت مظلة أحزاب ثلاثة كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على كل الأندلس .

١ - حزب أهل الأندلس : ويقصد بهم من استقروا في البلاد من قديم الزمان وصاروا أندلسيين بمرور الزمن بصرف النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلي أو الإسباني وقد أطلق على هؤلاء مصطلح أهل الجماعة ، ومن هؤلاء :

بنو عباد اللخميون في «إشبيلية» ، وبنو جهور في «قرطبة» ، وبنو هود الجذاميون في «سرقسطة» ، وبنو صمادح أو تيجب في «المرية» وبنو برزال في «قرمونة» ، وعبد العزيز بن أبي عامر في «بلنسية» . الخ .

٢ - حزب البربر أو المغاربة : حديثوا العهد بالأندلس وهم الذين استقروا بها منذ زمن المنصور بن أبي عامر ، ومن هؤلاء بنو زيري الصنهاجيون في غرناطة ، وبنو حمود الأدارسة العلويون في مالقة .

٣ - حزب كبار الصقالبة : الذين استقلوا بشرقي الأندلس ، ومنهم مجاهد العامري الذي استقل بدانية والجزر الشرقية وغيرها ، وخيران العامري زعيم حزب الصقالبة في قرطبة أثناء الفتنة ، وكل واحد من هذه الأحزاب حرص على أن يبحث لنفسه عن غطاء روي فأقام خليفة بجواره يستمد منه سلطانه ، فبنو عباد جاءوا بشخص اسمه خلف الحصري ، كان شديد الشبه بهشام المؤيد المشكوك في موته ، فجعلوه خليفة صاحب الجماعة ، ثم أظهر المعتضد بن عباد موته عام (٤٥٥ هـ) ، وأعلن أنه منحه ولاية العهد وأنه الأمير بعده على كل الأندلس بمقتضى هذا العهد .

بأستيلاء بني زيري ملوك غرناطة على مالقة ، وبني عباد على الجزيرة الخضراء وانتهى بذلك ملك الحموديين .

أما حزب الصقالبة فقد أقام مجاهد العامري في مملكته بدانية والجزر الشرقية خليفة أمويًا هو الفقيه أبو عبدالله بن الوليد المعيطي الذي لقبه بالمنتصر بالله .

لكن مجاهد مالبت أن طرده ونفاه إلى بلاد المغرب عندما علم أنه تأمر عليه أثناء غزوه لجزيرة «سردينيا» .

وقد اصطدمت مصالح هؤلاء جميعاً لقرب المسافات بينهم ، وهذا وضع جعل المراكشي يسخر منه فيقول :

«وصار الأمر في غاية الأخلوقة (الأضحوكة) والفضيحة ، أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها» .

كما كان جديراً بتندر ابن حزم الذى علق عليه بقوله :

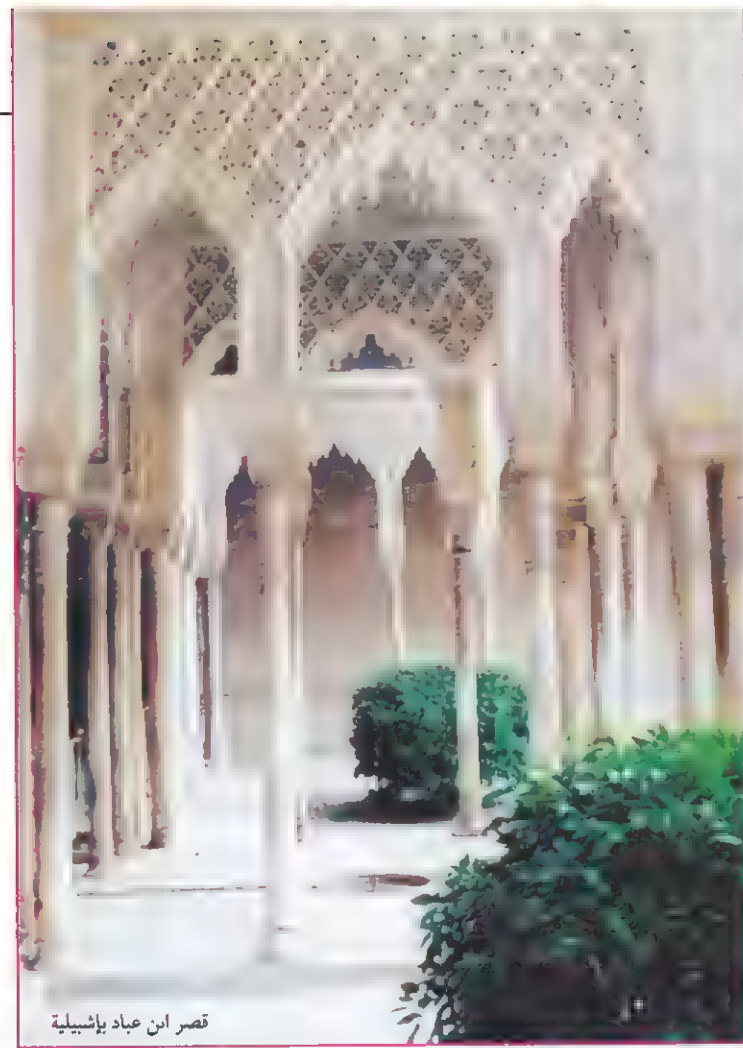
« واجتمع عندنا بالأندلس فى صقع واحد خلفاء أربعة ، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه ، وتلك فضيحة لم ير مثلها ، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام كلهم تسمى بالخلافة ، وإمارة المؤمنين » .

تجربى الأمور على هذا النحو المرير بالأندلس فى الوقت الذى كانت تعمل فيه دول إسبانيا المسيحية فى شمال البلاد على توحيد صفوفها تساندها فرنسا والبابوية فى روما .

وما إن زالت الدولة الأموية من الأندلس حتى تغلغل النفوذ الفرنسى بكل صوره ، سياسية وثقافية ودينية فى الشمال الإشباني باعثاً روحاً صليبية جديدة ضد المسلمين .

وكان يحكم إسبانيا المسيحية فى هذه الآونة رجل طموح هو الملك « ألفونسو السادس » ملك قشتالة ، نجح فى توحيد مملكتي قشتالة ، وليون ، وسيطر على الممالك المسيحية الشمالية ، وتوجَّ جهوده العسكرية باحتلال « طليطلة » عاصمة الثغر الأدنى للمسلمين سنة (٤٧٨هـ = ١٠٨٥م) ، رغم تميزها بموقع منيع .

وكان سقوط مدينة « طليطلة » فى أيدي الإشباني كارثة كبرى للمسلمين ؛ لأن العدو احتل



قصر ابن عباد بإشبيلية

الأراضى الواسعة التى تمتد جنوباً حتى جبال قرطبة ، وأطلق على هذه المنطقة الجديدة اسم « قشتالة الجديدة » وبذلك تمزقت بلاد المسلمين وانشطرت إلى قسمين .

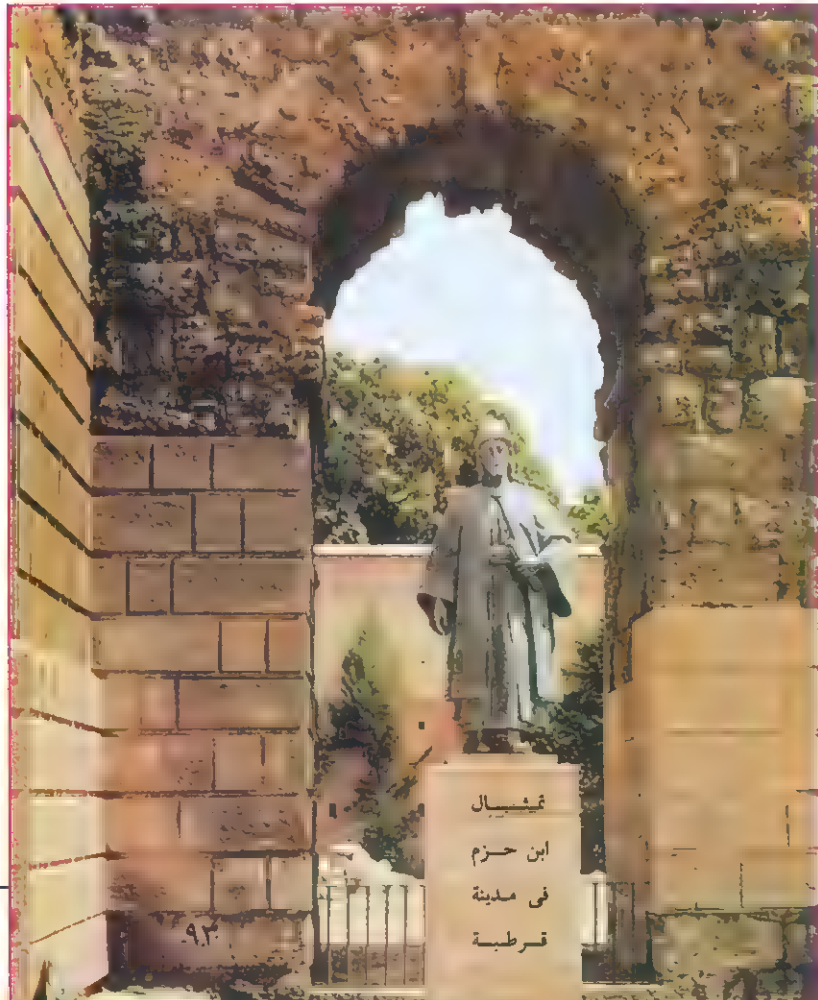
ولم يكتف « ألفونسو السادس » بما حققه ، وإنما اتجه بتحريض من الفرنسيين إلى مدينة « سرقسطة » عاصمة الثغر الأعلى وحاصرها بهدف الاستيلاء عليها ، وأخذ يضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض ، ويهاجم أراضيهم ويطالبهم بالأموال كى يضعفهم عسكرياً واقتصادياً .

وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة سياسياً واجتماعياً فإنه مما

عباد وولده المعتمد ، ولمع فى بلاطهم كثير من الشعراء والوزراء والكتاب ، وظهر فى بلاط بنى الأفطس « أبو محمد عبد المجيد بن عبدون » ، و« أبو بكر » و« أبو محمد » و« أبو الحسن » أبناء عبد العزيز البطليوسى ، كما اجتمع حول بنى صمادح عدد من أقطاب الأدب والشعر منهم ابن القزاز وابن الحداد والوازى آشى وغيرهم ، أما بنو هود فى سرقسطة فقد نعم بحمايتهم واشتهر فى ظلهم الشاعر أحمد بن محمد بن دراج القسطلى .

وعرف هذا العصر مجموعة من العلماء الكبار الذين وصلوا إلى القمة من حيث النضج الفكرى والمستوى العلمى ، من هؤلاء ابن

حزم وأبو الوليد الباجى ، واللغوى ابن سيده ، واللغوى الجغرافى أبو عبيد البكرى ، والعلامة ابن عبد البر ، ومجاهد العامرى صاحب داتية ، ومحمد بن أحمد ابن طاهر صاحب مرسية ، ومن أكابر الفلكيين والرياضيين الذين أفادوا الغرب ببحوثهم أبو إسحاق إبراهيم يحيى الزرقالى ، وأبو القاسم إصغ ابن السمع الغرناطى ، وقد اشتهر الأول بجداوله الفلكية التى صححت كثيراً مما جاد فى الجداول القديمة ، أما الآخر فكان بارعاً فى الهندسة والفلك ، والرياضيات ، ومن كبار العلماء الذين عنوا بالتاريخ وتدوين الحوادث والترجمة للأعلام ابن حزم ، والمؤرخ الكبير أبو مروان حيان بن خلف بن



عشال
ابن حزم
فى مدينة
قرطبة

حيان ، وأبو عبدالله الحميدى ، وأبو الحسن على بسام الشترينى صاحب كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، والكاظم القدير والمؤرخ الأديب الفتح بن خاقان ، وكما ارتقت العلوم والآداب ازدهرت الفنون والصناعات فى عهد ملوك الطوائف ، خاصة ما يتعلق بالموسيقى والغناء وآلات الطرب .

وإذا كان يعرف عن أهل الأندلس اهتمامهم بكل ما يتعلق بتربية الماشية ، وفلاحة الأرض ، وتنظيم الرى وأحوال الجو ، وخواص النباتات وإنشاء الحدائق فإنه ينبغى الإشارة إلى ظهور عدد من علماء النبات والزراعة فى عهد ملوك الطوائف ، لاسيما فى طليطلة وإشبيلية منهم ابن وافد وابن بصال ، وأحمد بن محمد حجاج ، وابن لونكو فى قرطبة وغير هؤلاء .

وكانت الصناعات رائجة خلال عصر الطوائف وأشهرها بصفة خاصة ، وكان فى المرية وحدها خمسة آلاف مصنع تنتج أجمل أنواع الأقمشة وأفخمها ، وكانت السفن تأتى من بلاد المشرق ومن الثغور الإيطالية إلى الموانئ الأندلسية فى إشبيلية والمرية وبلنسية وداتية وسرقسطة تحمل بضائع المشرق ، وتعود محملة بما تستورده من السلع الأندلسية ، وكانت التجارة الخارجية مصدراً مهماً من مصادر دخل دول الطوائف ذات الثغور .

٢ - الأندلس في ظل المرابطين

[٤٨٤ - ٥٣٩ هـ = ١٠٩١ - ١١٤٤ م]

وصلت دولة المرابطين في المغرب إلى أقصى قوتها وبلغت أكبر اتساع لها على يد مؤسسها الحقيقي «يوسف بن تاشفين»، وكان أصحابها من البواسل الشجعان ذوي الطباع السليمة والعزائم القوية التي لم يفسدها الضعف والهوان، فهم ممن يؤمل نجاتهم ويرجى غوثهم.



وكانت حال الأندلس في العدة الأخرى تعاني سيطرة ملوك النصارى وسطوتهم واستغاثة ملوك المسلمين بهم وإرهاق هؤلاء لهم بالجزيرة وبما يفرضون عليهم، وتسفهم في مطالبة الولاة المسلمين بما لا طاقة لهم به، وتكليفهم فوق طاقتهم، وعاد هؤلاء الملوك على شعوبهم فأثقلوا كواهلهم وبالفرا في تحميلهم ما لا قدرة لهم عليه، واحتقر «ألفونسو» وغيره زعماء وقادة المسلمين حتى جثوا جميعاً أمامه يستعطفونه ويرجون قبول أموالهم وهداياهم وهو يشترط ويبالغ ويقول:

«أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة لصوص، فاللص الأول قد سرق وجاء الثاني فسرق من الأول ما سرق، وجاء الثالث فسلم من الثاني ما سرقه من الأول».

وهم من ناحيتهم يبادرون بتهنته وحمل الطرف والهدايا إليه ويصرحون له بأنهم داخل حدود سلطانه ليسوا إلا جباة أموال لتحصيل الضرائب ودفع الجزية.

وقد أخذ «ألفونسو السادس»

يجتاح ويخرب مدنهم ومروجهم ويفتح معاقلمهم ويحطم حصونهم، ويضرب عليهم جميعاً ما يشاء من أموال ويضاعفها فيؤدونها - بلا استثناء - وهم صاغرون، ثم أخذت المدن تتساقط في أيدي النصارى مدينة إثر مدينة.

إزاء هذا الوضع المتردى فكر الأندلسيون في مخرج، ووجد رجال الدين أن خير وسيلة هي دعوة المرابطين للعبور إلى بلادهم وتخليصهم من الوضع المريع الذي بلغ القمة ولم يعد يحتمل المزيد، أما الملوك والأمراء فقد ترددوا أول الأمر ورأوا في ابن تاشفين مناوئاً خطيراً أكثر منه عوناً ونصيراً،

وربما جاء إلى بلادهم فاستقر فيها وطردهم منها، لكن «ابن عباد» صاحب «إشبيلية» قطع الشك باليقين قائلاً إنه لا يريد أن تتهمه الأجيال المقبلة بأنه ترك الأندلس غنيمة في أيدي الكفار قائلاً: «ولا أحب أن يلعن اسمي على منابر المسلمين وعندي أن رعى الجمال خير من رعى الخنازير».

وقد أقنع المعتمد بن عباد بوجهة نظره كلا من المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس و«عبدالله بن بلقين» صاحب غرناطة، وأرسلوا جميعاً ومعهم العلماء والفقهاء وفداً إلى «يوسف بن تاشفين» يستصرخونه ويطلبون إنقاذهم.

كان من عادة زعيم المرابطين ألا يرم أمراً إلا بعد مشاورة الفقهاء، وقد أشاروا عليه أن يبدأ بقتال القشتاليين، وأن تخلق له الجزيرة الخضراء، فأمر يوسف بن تاشفين بعض فرسانه فعبروا من مدينة سبتة على متن بعض السفن إلى الجزيرة الخضراء يقودهم «داود بن عائشة»، وكان معهم جيش كثيف من الجنود، وأرسل المعتمد إلى ابنه حاكم الجزيرة يطلب منه تركها وتيسير مهمة قوات المرابطين، ثم تلاحت الجنود بالجزيرة، وعبر «يوسف» نفسه، وعنى بتحسين المدينة حتى اطمأن إلى أنها قد أصبحت في حالة حسنة وبها من

المؤن والذخائر ما يكفيها، ثم سار في معظم جيشه إلى «إشبيلية»؛ حيث خرج المعتمد للقائه وأحسن استقباله وقدم له من الهدايا ما يليق بمقامه وما أكد ليوسف أن الأندلس تتمتع بغنى موفور وثراء متزايد، وقد طلب ابن تاشفين من أمراء الطوائف المشاركة في الجهاد، فلبى الدعوة صاحب غرناطة وأخوه صاحب مالقة، وقصد الجميع نحو بطليوس حيث لقيهم ملكها وأخذت وفود الرؤساء تتوافد من سائر أقطار الأندلس وانتظمت القوات الأندلسية وحدة قائمة بذاتها، القيادة فيها لابن عباد واحتلت المقدمة، بينما احتلت

الجيش المرابطية المؤخرة.

* موقعة الزلاقة:

واصلت القوات الإسلامية سيرها حتى نزلت على سهل فسيح يقع إلى الشمال من مدينة بطليوس قرب حدود البرتغال الحالية تسميه المصادر العربية بالزلاقة فلما علم «ألفونسو السادس» بأخبار المرابطين ترك حصار «سرقسطة» وأرسل إلى «سانشوا» ملك «أراجون» يطلب معونته، وكان بدوره يحاصر «طرشوش» واستدعى قواته التي كانت في «بلنسية»، وحشد كل ما استطاع وجاءه المتطوعون من جنوبي فرنسا وإيطاليا وحرص على أن



يكون لقاءه بالمسلمين في الأراضي الإسلامية ، حتى لا تتعرض بلاده للتخريب ثم اتجه نحو الجنوب للقاء المرابطين ، وهو يمتلئ زهواً ويتيه فخراً بما معه ومن معه ، ونزل في مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن معسكر المسلمين ، وقدر جيشه بما بين أربعين إلى ثمانين ألفاً على حين قدر الجيش الإسلامي بما بين عشرين إلى نحو خمسين ألفاً ، وكان يقود المقدمة المعتمد بن عباد ، وعلى اليمين « المتوكل بن الألفس » وتكونت الميسرة من أهل شرقي الأندلس ، أما المؤخرة فكانت من البربر بقيادة « داود بن عائشة » ، وكان أنجاد المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرها بقيادة يوسف بن تاشفين .

لبث الجيشان ثلاثة أيام لا يفصلهما سوى نهر ، والرسول تتردد بينهما ، وقد أرسل « ابن تاشفين » إلى خصمه يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، فاستاء الملك النصراني ورد بقوله : « إنى ما كنت أتوقع أن يصل الحد بالمسلمين الذين كانوا يعطوننى الجزية منذ سنين أن يعرضوا على مثل هذه الاقتراحات الجارحة ومع هذا فإن لدى جيشاً فى استطاعته أن ينزل العقوبة على هذه الوقاحة البالغة من الأعداء » ولم يكن جواب « يوسف » على أكثر من هذه العبارة « الذى يكون ستره » .

جرت اتصالات تهدف إلى تحديد موعد المعركة ، وحاول « ألفونسو » خديعة المسلمين ، لكن المعتمد بن عباد أدرك خديعته ، وقد أخبرته طلائعه بما فى معسكر العدو من حركة وجلبة سلاح ، رغم أن الوقت المتفق عليه لبدء القتال لم يكن قد حان بعد .

وفى أوائل (رمضان ٤٨٠هـ = ديسمبر ١٠٨٧م) بدأ القتال فى الصباح الباكر واشتد لهيب المعركة وهاجم النصارى بعنف مقدمة « المعتمد بن عباد » ونجح فى ردها عن مواقعها واختل نظامها وارتد معظمها إلى بطليوس ولم يثبت إلا الإشبيليون وابن عباد الذى كان مثالا للشجاعة والإقدام حيث صمد للعدو ، وقاوم هجماته العنيفة رغم جرحه الذى فى وجهه ويده ، وهجم « ألفونسو » على مقدمة المرابطين التى يقودها « داود بن عائشة » وردها عن مواقعها ، وفى اللحظة المناسبة دفع ابن تاشفين بقوات البربر إلى نجدة الأندلسيين والمرابطين ، ونفذت قواته إلى قلب النصارى بكل قوة ، وسرعان ما تغير وجه المعركة ، لأن يوسف هاجم عدوه من الخلف مباغتة وهذا شجع الفارين فعادوا ونظموا صفوفهم ، وشدوا من أزر المعتمد ، ورغم أن « ألفونسو » كان قد وصل

إلى خيام المرابطين ، فإن ابن تاشفين تقدم على رأس من معه من قوات وتجاوز جموع النصارى وقصد إلى معسكرهم نفسه وهاجمه بشده وفتك بحراسته ، ثم وثب إلى مؤخرة القشتاليين النصارى ، وأثنى فيهم قتلاً وطبولة تضرب فتشق أجواز الفضاء ، ثم أضرم النار فى معسكر الأعداء .

اضطر « ألفونسو » أن يستدير لينقذ معسكره ؛ لكنه اصطدم بالمرابطين ولم يصل إلى محله إلا بعد خسائر فادحة ، وكان « يوسف » أثناء القتال يجول على صهوة

جواده بين المحاربين يهيب بهم « أن تشجعوا أيها المسلمون ، أعداء الله أمامكم والجنة تنتظركم ، وطوبى لمن أحرز الشهادة » .

وكان سماع النصارى لدوى الطبول ووقوف المسلمين يقاثلون فى صفوف متراصة ثابتة من العوامل المساعدة على انتصار المسلمين وإحاقهم الهزيمة بصفوف عدوهم ، وقد دفع « ابن تاشفين » بحرسه الأسود البالغ عدده نحو أربعة آلاف إلى قلب المعركة فى الوقت المناسب ، وتمكن واحد منهم من الوصول إلى « ألفونسو » وطعنه فى فخذه الشئ الذى

وقد استبشر المسلمون فى شبه الجزيرة بهذا النصر العظيم غير أن وصول نبأ وفاة الأمير أبى بكر بن يوسف بن تاشفين كدر صفو النصر ، وجعل « ابن تاشفين » يقرر العودة إلى بلاد المغرب ومعه عامة

الجند ، وترك تحت إمرة المعتمد جيشاً من المرابطين مؤلفاً من ثلاثة آلاف جندي . بعد أن نجح « يوسف » بما حققه من نصر مؤزر فى إعادة روح الثقة والأمل إلى نفوس المسلمين بالأندلس .

* عودة ابن تاشفين إلى الأندلس :

عبر ابن تاشفين مرة أخرى إلى الأندلس فى رجب (٤٨٣هـ = سبتمبر ١٠٩٠م) ، واتجه نحو حصن يسمى حصن « لايط » وهناك تبين له تخاذل أمراء الطوائف فعزلهم جميعاً ووجد الأندلس ، ولم يستثن من ذلك إلا إمارة سرقسطة ، فقد كان أصحابها محاطين بالنصارى من كل ناحية ، وخشى ابن تاشفين أن يسلموها للنصارى إذا تعرض لهم فتركهم بدون تدخل ، وبهذا العبور الثانى ليوسف بدأ عصر المرابطين فى الأندلس .

وعلى الرغم من قيام المرابطين بمسئولياتهم فى المغرب الأوسط والأقصى فإنه كان من مهامهم الرئيسية الدفاع عن الإسلام فى الأندلس ، وفى هذا الميدان جاهدوا وأنفقوا ، واستشهد فيه خيرة رجالهم ، وعرفوا كيف يشبتون لعدوهم ويوقفون تقدم النصارى ، رغم تكتل الأعداء واستعانتهم بملوك غربي أوروبا وبالباوية ، ومن مواقع المرابطين التى أبلوا فيها بلاء



٣ - الأندلس في ظل الموحدين

[٥٣٩ - ٦٢٠ هـ = ١١٤٤ - ١٢٢٣ م]

تمكن الموحدون من قتل أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف ، وتم لهم بذلك القضاء على المرابطين ، وفي سنة (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) عبر «عبد المؤمن بن علي» أول خلفاء الموحدين إلى الأندلس ؛ لضم ما بقى بها إلى دولته ، واستقر في إشبيلية ، ونظم الدفاع عن البلاد ، وأقام على قواعد الأندلس رجالا من آل بيته ،

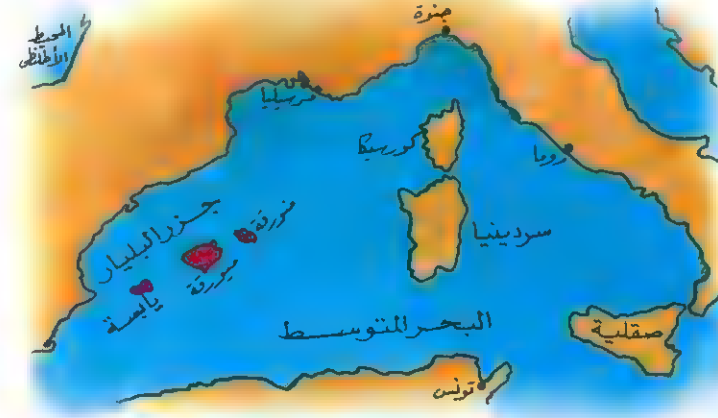
وتمكن من توحيد معظم ما بقى من الأندلس تحت رايته ، ولم يخرج عن طاعته إلا بنو غانية أمراء دانية ، ومحمد بن سعد بن مردايشن رئيس مرسية الذي انضمت بلاده إلى الموحدين بعد ذلك ، وبدأ جهاد المسلمين ضد النصارى واتخذ ميداناً له غربي الأندلس بعد أن كان مجاله شرقي الأندلس زمن المرابطين .

كان الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب الملقب بالنصور هو أكبر شخصية في تاريخ الموحدين بعد محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي قد عقد صلحاً مع النصارى ، وعندما انتهت مدة هذا الصلح سنة (٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م) بدأ هؤلاء في مهاجمة أراضي المسلمين ، فعبّر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس ومعه خيرة المقاتلين والموحدين ، وضم إليه أحسن مقاتلي الأندلس ، وحشد حشداً عظيماً من جنده وحملهم في هذه الحملة ، بينما استعان عدوه «ألفونسو الثامن» ملك قشتالة وليون بملوك النصارى

وبالبابوية ، وكون جيشاً ضخماً ، وعسكر عند حصن يسمى «الأرك» عند نهاية الطريق المؤدى من طليطلة إلى قرطبة على بعد (٢٠ كم) بالقرب من قلعة «رباح» وغرب المدينة الملكية الآن ، وبدأت موقعة حاسمة في شعبان (٥٩١ هـ = يوليو ١١٩٥ م) أسفرت عن نصر مؤزر للمسلمين ، وانكسرت حدة الموجة النصرانية ، وكان لهذا النصر أثره في تثبيت جبهة الإسلام في الأندلس لمدة طويلة من الزمان . وبعد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين المسلمين والنصارى سنة



(٥٩٤ هـ = ١١٩٨ م) ، ولكن ملك النصارى ما كان ليستريح بعد هزيمته القاسية في «الأرك» ، ولذلك أخذ في الاستعداد لمعركة جديدة مع المسلمين قبل انتهاء أمد الهدنة وأعد جيشاً ضخماً واحتشد بكل ما يستطيع بمعاونة كاملة من ملوك النصارى في غرب أوروبا ومن البابوية ومن نصارى إسبانيا وشجعه موت أبي يوسف يعقوب خليفة الموحدين ، وتولية خلفه أبي عبدالله محمد الناصر الذي كان أقل كفاية من أبيه وقد عبر الخليفة الجديد إلى الأندلس في



وجدير بالذكر أن المرابطين حرصوا على تحرى الحق وتحقيق العدل وإقامة شعائر الدين ، وأقاموا مجتمعاً مسلماً عمل على الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه .

وكان بالأندلس قائد أعلى هو الحاكم العام غالباً ، وللمدن قادة يخضعون لهذا القائد الأعلى ويتولون المهام العسكرية والإدارية وغيرها ، وكان اختيار الوالى يتم على أساس تقواه وعدالته وإجادته لمهمته ، وسرعان ما كان يعزل إذا فرط أو قصر ، وقد قسمت الأندلس زمن المرابطين إلى ست ولايات هي : إشبيلية وقرطبة وبلنسية ومرسية وسرقطة .

أما القضاء فقد بقى مستقلاً ، وكان القضاء يستشارون ، ولهم مكانتهم عند الناس وعند الدولة . وقد استمرت الصناعة أيام المرابطين على نحو ما كانت عليه من قبل ، واهتموا بالجيش والأسطول ، وتحصين الثغور والمدن .

القوات من الأندلس وهى فى أوج انتصاراتها ، وشغل المرابطون بالدفاع عن أنفسهم بالمغرب خاصة بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين ثالث أمراءهم سنة (٣٧٠ هـ = ١١٤٢ م) ، وزاد الموقف سوءاً قيام بعض الأندلسيين بالثورات ضد المرابطين وزعمهم أنهم أكثر رقىا وأعظم حضارة من هؤلاء الأفارقة .

* النواحي الحضارية :

أما عن النواحي الفكرية والأدبية ، فلم يكن المرابطون يرحبون بمظاهر الحضارة الأندلسية ، فخبأ ضوء الفكر والأدب فى أيامهم ، وانتهت الحلقات الأدبية التى كانت تزدان بها قصور ملوك الطوائف ، وهذا لا يمنع من ظهور شخصيات عُدّت امتداداً لعصر الطوائف ، يأتى على رأس هؤلاء «ابن باجة» الطبيب الفيلسوف ، وأبو بكر الطرطوشى ، والفتح بن خاقان ، وابن بسام الششتري وأبو بكر بن قرمان أمير الزجل الأندلسى وغيرهم .

حسناً موقعة «أقليسن» شرقى طليطلة ، وكان من نتائجها استيلاؤهم على هذه المدينة ، وعلى مدينة طليطلة للمرة الثانية سنة (٥٠٣ هـ = ١١٠٩ م) . كما تمكنت البحرية المرابطية فى سنة (٥٠٩ هـ = ١١١٥ م) من استعادة جزر البليار ، ولو بقيت هذه الجزر بيد النصارى لأصبحت خطراً يهدد شرق الأندلس كله .

وهذا لا يعنى أن المرابطين خلت أيامهم من الهزائم ، فقد تعرضوا لنكبة عند بلدة «كتندة» القرية من سرقطة فى (ربيع الأول ٥١٤ هـ = يونيو ١١٢٠ م) ، واستشهد منهم ألف من بينهم بعض العلماء بسبب تسرعهم فى الهجوم على العدو قبل أن تنتظم صفوفهم ، فاختل نظامهم وكانت الهزيمة ، لكنهم حققوا نصراً فى موقعة «أفراغة» جنوبى غربى «لاردة» بالثغر الأعلى فى سنة (٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م) ، يقودهم واحد من كبار رجالهم هو أبو زكريا يحيى بن غانية والى بلنسية ومرسية .

وفى الوقت الذى يقوم فيه المرابطون بهذه المجهودات ويحققون أعظم الانتصارات إذ بهم يفاجئون بثورة يقوم بها المصامدة بقيادة «محمد بن تومرت» ضدهم فى بلاد المغرب . فكان سبباً فى توقف الجهاد فى الأندلس وبدأت المدن تتساقط واحدة وراء الأخرى فى أيدي النصارى ، بسبب سحب

وقد برز بالأندلس على عهد الموحدين عدد من البارعين في فروع العلم والمعرفة منهم أبو محمد بن خير ، وأبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير الرحالة المشهور ، وأبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي ، الحافظ المحدث الأديب ، وأبو الحسن علي ابن محمد الرعيني الكاتب الأديب ، وأبو مروان عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة المؤرخ ، وعبد الواحد المراكشي ، وعلي بن موسى بن سعيد ، وابن عذارى من المؤرخين ، وأبو جعفر أحمد الغافقي وأسرة بني زهر علماء الطب والنبات ، وأبو الوليد محمد ابن أحمد بن محمد ابن رشد والحفيد ، الذي اشتهر بالطب والفلسفة ، وغير هؤلاء من العلماء المجاهدين كثير .



أما عن الناحية العمرانية فقد أنشأ الخليفة أبو يعقوب يوسف بعض المشروعات في «إشبيلية» ، منها بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير، كما حصن هذه المدينة وأقام بها منشآت لتوفير المياه الجارية لسقاية الناس ، وأسس الخليفة أبو يعقوب سنة (٥٦٧هـ = ١١٧٢م) جامع إشبيلية الأعظم وأتم ابنه المنصور صومعته أو مئذنته الكبيرة عام (٥٨٤هـ = ١١٨٨م) وهذه المئذنة قائمة حتى اليوم ، وتعرف بالمئذنة الدوارة (لاخير الدا) ويبلغ ارتفاعها (٩٦) متراً ، كذلك أقام الموحدون بعض القصور الخاصة المحاطة ببساتين تزينها أشجار الفواكه والثمار وتسقى بواسطة النواعير (السواقي) .



* لمحة عن الجوانب الحضارية والإدارية :

كانت الأندلس في عهد الموحدين ولاية من ولايات الدولة ، يأتي الخليفة إليها ويرعى شئونها العسكرية والعلمية والإدارية كلما دعت الظروف إلى ذلك ، وقد أكد الخلفاء والولاة وجوب إقامة العدل والتمسك بالشريعة في كل الأمور ، وقد بلغت الدولة الموحدية مكانة عالية في النواحي الحربية والسياسية والحضارية حتى جاءت الوفود إلى البلاط الموحدي لعقد المعاهدات وإظهار الصداقة ، وفي آخر العهد الموحدي أنشئ منصب وزاري لاستقبال الشعراء والعناية بأمورهم .

وكانت هناك عناية بالإنشاءات العسكرية والتحصينات وكان الأسطول موضع اهتمام الخلفاء ، كما كان للجيش أسلوبه في التحرك والقتال وله تنظيماته ، وكان هناك مجلس عسكري أول يستشار في الخطط والأمور العسكرية وكانت الخلافة وراثية . كما كان الاهتمام عالياً بالجوانب الإدارية والمالية والموارد والمصارف ، وكان القضاء مستقلاً يتولاه أهل الأندلس ويحكمون بين الناس بما أنزل الله ، ونعمت البلاد بالامن والرخاء في ظل صناعة وزراعة وتجارة مزدهرة .

النصارى وحصدوا الألوف من متطوعة المسلمين المجاهدين من الأندلس كما حصدوا زهرة مقاتلي الأندلس ، وعدداً كبيراً من خيرة العلماء والفقهاء والقضاة ، وكان الخطب عظيماً حتى قيل إن الإنسان كان يتجول في المغرب بعد المعركة فلا يصادف شاباً قادراً على القتال .

وبعدها ضعفت جبهة الوادي الكبير ، وسقطت مدن كبرى ، وأشرف النصارى مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم هذا الخط ، ثم توفي خليفة الموحدين الناصر في شعبان (٦١٠هـ = ١٢١٣م) ، ودب الخلاف في صفوف البيت الموحدي وانعكس ذلك على الأندلس فبدأت تصفية ما بقي للمسلمين من أرضها خلال عصر الموحدين ولم تبق إلا مملكة غرناطة .

ذى الحجة (٦٠٧هـ = ١٢١١م) على رأس جيش ضخم ونزل إشبيلية ومن هناك صعد شمالاً الوادي الكبير وعسكر في سهل تكثر فيه التلال الصغيرة ويقع غربي الحصن المسمى بالعقاب (جمع عقبة) ، وأقبل النصارى كذلك ، وعسكروا فوق هضبة الملك المشرفة على معسكر المسلمين ، وقبل اللقاء استولى النصارى على قلعة «رباح» من قائدها الأندلسي ، وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر الناصر قتله دون تحقيق ، الأمر الذي أغضب الأندلسيين وأثر في معنوياتهم .

بدأ اللقاء في (١٥) من صفر ٦٠٩هـ = ١٦ من يوليو ١٢١٢م) ، وانخزل الأندلسيون والخارجون على المسلمين من العرب بعد قليل ، وتركوا الجناح الشرقي للمسلمين مكشوقاً فانقض عليهم



٤ - دولة بني نصر

أو بني الأحمر في غرناطة

[٦٢٩ - ٨٩٧هـ = ١٢٣٢ - ١٤٩٢م]

انفرد عقد الأندلس بعنف بعد هزيمة الموحدين في معركة «العقاب» أمام الجيوش الإسبانية والأوربية المتحالفة ، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ ، والقواعد تخرج من قبضة الموحدين واحدة بعد الأخرى ، يتزعزع بعضها ابن هود الناصر وبعضها النصارى وأتاحت هذه الظروف فرصة الظهور والمغامرة للطامحين من القادة والزعماء .



في تلك الأثناء ظهر محمد بن يوسف بن نصر أو ابن الأحمر الملقب (الغالب بالله) في وقت اشتدت فيه المحن ، وانعقدت عليه الآمال ؛ لتميزه بالشجاعة ومجاهدة العدو ، والتف حوله الناس وبايعوه في «أرجونة» وما حولها على بعد ثلاثين كيلو متراً من «جيان» في رمضان (٦٢٩هـ = يوليو ١٢٣٢م) وتوافد عليه جنود الأندلس ؛ فأعلن نفسه أميراً وانتقل إلى «جيان» ، ودخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها ، لكنه أحس أنه في حاجة إلى معقل يعتصم به ؛ لأن «جيان» مدينة مكشوفة ، فوقع اختياره على غرناطة الواقعة عند سفح جبل الثلج ، وكان يوجد في أعلى الجبل حصن منيع سبق تعميره أول عصر ملوك الطوائف ، فتوجه إليه وسكنه واستقر به ، وشيئاً فشيئاً أخذ يوسع نطاق سلطانه ، حتى أصبحت دولته تضم بين جنباتها ثلاث ولايات كبيرة هي : غرناطة وألمرية ، ومالقة ، ووصلت

حدودها إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، واتخذ مدينة غرناطة عاصمة لدولته ، وساعد على دعم دولته استيلاؤه على ألمرية ومالقة لما لهما من أهمية عظيمة في المجالين التجاري والبحري .

وقد واجهت «ابن نصر» بعض المشكلات الداخلية والخارجية ، منها : علاقته بأصهاره «بني أشقيلولة» الذين عاونوه ثم انقلبوا عليه ، ونقص المال الذي كان في أشد الحاجة إليه لتشييت قواعد سلطانه ، ومشكلته مع ملوك

النصارى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء عليها ، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح سنة (٦٤٣هـ = ١٢٤٥م) لمدة عشرين عاماً ، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة «فرناندو الثالث» ودفع له جزية ، ووافق على حضور البلاط القشتالي باعتباره واحداً من أمراء الملك ، وعلى مده بالجنود كلما طلب منه ذلك ، وبالفعل أمدّه ابن الأحمر بقوات ساعدت على سقوط «إشبيلية» في يد النصارى في (٣ شعبان ٦٤٦هـ = نوفمبر ١٢٤٨م) .

وفي جمادى الثانية (٦٧١هـ = ديسمبر ١٢٧٢م) توفي محمد بن يوسف بن نصير الملقب بالشيخ ، وكان قد أخذ البيعة لولده محمد ، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية ، وقد اعتلى محمد الثاني العرش ولقب بالفقيه ؛ لاشتغاله بالعلم أيام أبيه ، وقال عنه ابن الخطيب : «وهو الذي رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها ، ونظم دواوينها وجبايتها ، هذا إلى جانب اعتناكه بالجيش وخاصة فرق الفرسان .. وكان سياسياً بارزاً .. أديباً عالماً ، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدباء والأطباء والمنجمين والحكماء ، والكتاب والشعراء» .

وقد واجه الأمير الجديد ثلاث مشكلات هي ، مشكلته مع الإسبان ، وقد نجح في تحقيق انتصارات عليهم متهمزاً فرصة موت ملكهم ، ومع المرينيين الذين استنصر بهم ليعاونوه في الجهاد ضد المسيحيين فإذا بهم يطمعون في الاستيلاء على الأندلس ، الشيء الذي دفعه إلى التحالف مع ملك أراجون تارة ومع ملك قشتالة تارة أخرى لدرء خطر المرينيين ، وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين غرناطة وفاس ، فإن الفقيه لم يكن يطمئن إلى نياتهم ، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات ، وأخيراً كانت

هناك مشكلة مع أصهار أبيه «بني أشقيلولة» التي اشتدت في زمنه ، وانتهت بصدور أمر يقضي بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير بشمالى المغرب جنوب مدينة سبتة سنة (٦٨٧هـ) .

وعلى كل حال فقد توفي محمد الفقيه في (شعبان ٧٠١هـ = إبريل ١٣٠٢م) بعد أن نجح في دعم دولته داخلياً وخارجياً .

تولى الأمر بعد محمد الفقيه ابنه أبو عبدالله محمد ، وفي عهده تحالف ملكا قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطة برا وبحراً ، ولكن «ألمرية» تمكنت من الصمود في مواجهة أقصى هجوم عرفته في تاريخها وتمكن جيشها بقيادة شيخ الغزاة «عثمان بن أبي العلاء» من هزيمة جيش أراجون ، لكن العلاقة ساءت بين غرناطة وفاس ، وقام صاحب مالقة بثورة عارمة ضد الحكومة المركزية ، وكانت فتنة وقتال وحرب وهذنة استمرت أعواماً ولم تنته إلا بموت الأمير .

ثم تولى أبو الوليد إسماعيل بن فرح (٧١٣هـ = ١٣١٣م) ، الذي اشتهر بإقامة الحدود وتطبيق الشرع ، وفي عهده قام القشتاليون بهجوم ضخم على غرناطة ، انتهى بمقتل أميرى الجيش النصراني في مروج غرناطة ، وانتهاز الأمير فرصة منازعات بين أمراء قشتالة واستولى

على بعض المدن القشتالية ومنها مدينة «أشكر» ، وقد استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة عند منازلهم لها .

ثم تولى أبو عبدالله محمد الرابع بن إسماعيل (٧٢٥هـ = ١٣٢٥م) الذي اشتهر بالشجاعة كما كان مغرماً بالصيد محباً للأدب والشعر ، وفي عهده قامت بعض الفتن الداخلية التي انتهزها النصارى واستولوا على عدد من الحصون ، كما أحرز أسطولهم نصراً على الأسطول الإسلامى فى ألمرية ومالقة .

وقد دفع هذا السلطان أن يعبر بنفسه إلى المغرب ليستنجد ببني مرين الذين أجابوه إلى ما طلب ، ونزلت قوات المرينيين على جبل الفتح وأمكنها الاستيلاء عليه عام (٧٣٣هـ = ١٣٣٣م) ، ولكن السلطان قتل في طريق عودته إلى غرناطة وتولى من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول .

وشهدت مملكة غرناطة في عهده عصرها الذهبي ، فأنشئت المدرسة اليوسفية والنصيرية ، وجرى الاهتمام بتحصين البلاد ، وإنشاء المصانع ،

وإقامة الحصون ، وبناء السور العظيم حول ربض البيازين في غرناطة ، وأضيفت منشآت كثيرة إلى قصر الحمراء منها باب الشريعة وغيره ، وكان السلطان حريصاً على تفقد أحوال شعبه بنفسه .

ومن الأحداث العظام في عهده:
الوباء الأسود الذي تفشى في
حوض البحر الأبيض المتوسط عامي
(٧٤٩ - ٧٥٠ هـ = ١٣٤٨ -
١٣٤٩ م)، وشمل المشرق
والمغرب، وراح ضحيته عدد عظيم
من علماء الأندلس ورجال الدين
والأدب والسياسة فيها .

وعلى الرغم من قيام أبي
الحجاج بعقد سلام مع ملك قشتالة
عام (٧٣٤ هـ = ١٣٣٤ م) فإنه
- سرعان ما تحطم وبدأ - صراع بين
غرناطة والمغرب من ناحية، وقشتالة
تساندها أراجون والبرتغال من ناحية
أخرى حول السيطرة على جبل
طارق ، وبعد معارك انتهى الأمر
بين كل الأطراف بعقد معاهدة مدتها
عشر سنوات ، وتوفي يوسف الأول
قتيلاً في (أول شوال ٧٥٥ هـ =
سبتمبر ١٣٥٧ م)، وتولى ابنه محمد
الخامس الغنى بالله ، وحدث صراع
وتحالف بين هذا الطرف أو ذاك وبين
ملوك النصارى ، وانتهت هذه
المرحلة بعقد صلح دائم بين قشتالة
وأراجون وغرناطة والمغرب عام
(٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م) ، ثم توفي
السلطان محمد الخامس الذي كان
ملك البرتغال وسلطان بنى مرين قد
ساعده على استرداد ملكه، وبعده
تعاقب على عرش غرناطة عدد من
السلطين الضعاف وتعرضت المملكة



قصر الحمراء

لكثير من الفتن والدسائس
والمؤامرات وجرت اتصالات
وتحالفات مع ملوك النصارى ،
وبلغ الاضطراب حدا تعاقب معه
على مملكة غرناطة اثنا عشر سلطاناً
خلال القرن (٩ هـ = ١٥ م) ، تولى
بعضهم أكثر من مرة، فشهدت
غرناطة اعتلاء عشرين سلطاناً على
عرشها .

معتمداً - على حد كبير - على
استغلال النزاع بين هاتين
المملكتين، وبدأ الملكان
الكاثوليكيان يعملان على إنهاء
الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة،
وعرف ذلك سلطان غرناطة فامتنع
عن دفع الجزية لقشتالة وبدأ النزاع
بين الجانبين ، وتمكن النصارى من
الاستيلاء على حصن «الحمة» عام
(٨٨٧ هـ = ١٤٨٢ م) .

وزاد من سوء الموقف اشتعال
الحروب الأهلية بين أفراد البيت
الحاكم؛ فقد هجر السلطان أبا
الحسن على ولداه «أبو عبدالله

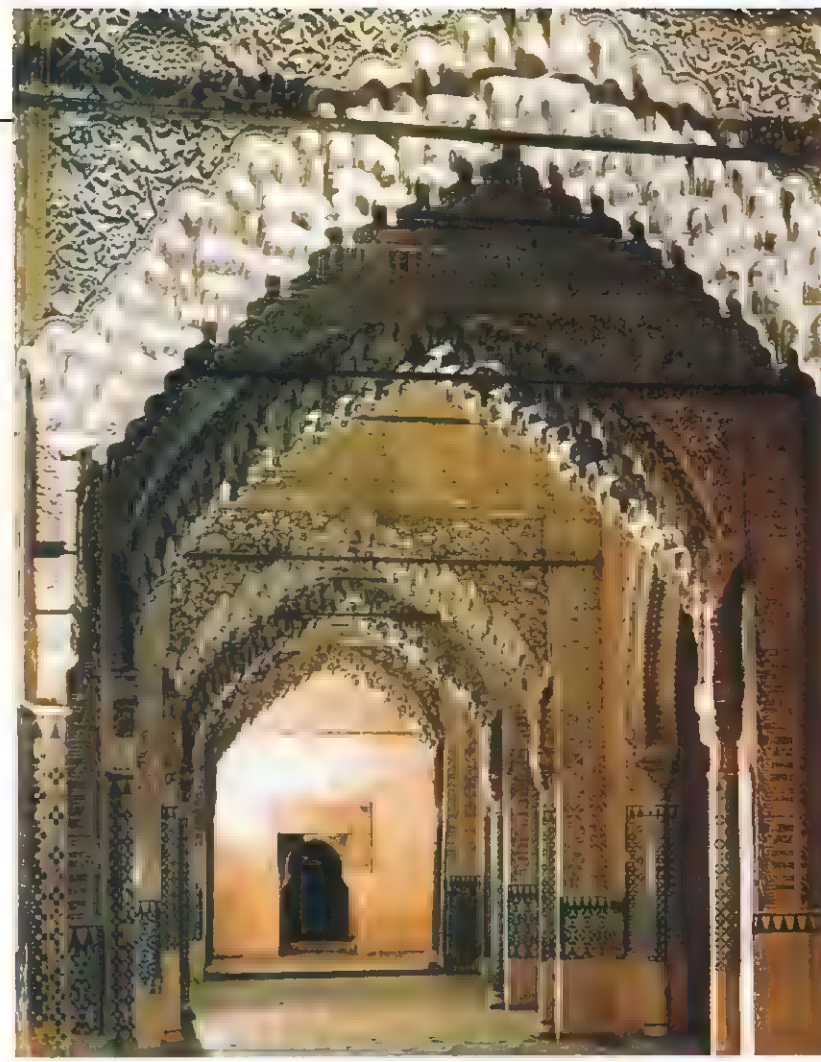
محمد» و«يوسف» وأعلنوا الثورة
على والدهما بسبب خضوعه
لسيطرة زوجته الرومية الأصل
وإهماله أمهما ، وقد قامت حروب
بين الفريقين، أسفرت عن طرد
السلطان أبي الحسن الذي لجأ إلى
مدينة بسطة، كما قتل ابنه يوسف
وتولى ابنه أبو عبدالله على مملكة
غرناطة ، وقد تعرض السلطان
الجديد لهزيمة على يد النصارى
وأسروه ثم أطلقوا سراحه بعد أن
أملوا عليه شروطهم، وواصل
السلطان الجديد الحرب ضد والده
الذي سرعان ما توفي وخلفه أخوه



أبو عبدالله محمد الملقب بالزغل .
انتهاز النصارى فرصة هذه الفتن
واستولوا على بعض المدن ، وبعثوا
إلى الزغل يعرضون تسليم ما معه
من أراضٍ مقابل مال كثير فوافق
ورحل إلى فاس ، وهناك وضعه
سلطان المغرب في السجن وصادر
أمواله وسمل عينيه .



وقد لجأت مملكة غرناطة في
السنوات الأخيرة من عمرها إلى
السلطات الحاكمة في مصر تطلب
نجدتها ، ولكن مصر المملوكية آنئذٍ
لم يكن في مقدورها أن تفعل شيئاً
بسبب ظروفها الداخلية ، وكل ما
استطاعته هو التهديد . بمعاملة
المسيحيين في المشرق معاملة سيئة إذا
ما تعرض المسلمون في الأندلس
للإهانة، وقد أرسل الملكان
المسيحيان سفارة إلى السلطان
«قائصوه الغوري» عام (٩٠٧ هـ =
١٥٠١ م) طمأنته على وضع
المسلمين وأزالت التوتر بين الجانبين .



مسجد الحمراء وعدد من المساجد في الأحياء المختلفة .

واشتهرت مساجد غرناطة باستخدام الرخام ، كما عرفت المساجد الأندلسية بتجميل صحنونها بحدائق الفاكهة وأقيمت المآذن منفصلة عن المساجد يفصل بينها صحن المسجد ، وكانت المثانة عبارة عن أربعة أبراج مربعة وتتكون من طابقين ، ويحيط بها سور يزين أعلاه بكرات معدنية مختلفة ، وحتى الآن توجد مئذنتان ترجعان إلى عصر دولة بني نصر ، الأولى مئذنة مسجد تحول إلى كنيسة هي كنيسة «سان خوان دي لوس ريس» ، والثاني ببلدة «رنده» التي تحول مسجدها إلى كنيسة باسم «سان سباستيان» .

الهند وخراسان وبلاد فارس للمرابطة في سبيل الله ، هذا بالإضافة إلى الأفارقة السود الذين عبروا إلى الأندلس منذ حركة الفتوح الأولى ، وقد تغلغل حب الانتماء إلى القبائل العربية بين الأندلسيين ، ويذكر في هذا أن بني نصر ملوك غرناطة ينسبون أنفسهم إلى الصحابي الجليل «سعد بن عباد» سيد الخزرج وأحد زعماء الأنصار .

* العمارة في مملكة غرناطة :

كان لغرناطة مسجد جامع من أبدع الجوامع وأحسنها منظراً . لا يلاصقه بناء ، قد قام سقفه على أعمدة حسان ، والماء يجري داخله . وإلى جانب المسجد الجامع وجدت مساجد أخرى مهمة مثل :

مؤزرًا ، وهذا يعني أن قوة المسلمين في الأندلس كانت لا تزال تستطيع الدفاع عن نفسها ودحر عدوها إذا وجدت صفوفها وأدركت أهمية معاركها ، ووعت جيداً دورها في مواجهة الأعداء وتشببت أقدام المسلمين في أرض الأندلس لكن النفور بين المرينيين وبين بني نصر كان أكثر أذى وأشد وطأة من خلافهم مع النصارى .

وبقى عبدالله في الميدان وحده وقد رفض تسليم غرناطة وصمم على القتال ، وفي عام ٨٩٦هـ = ١٤٩١م) قام الملك «فرناندو» بحصار غرناطة وأفسد زراعتها وأقام حولها القواعد ، ثم توصل الطرفان إلى معاهدة التسليم ، ودخل الملكان الكاثوليكيان مدينة غرناطة في (الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ = الثاني من يناير ١٤٩٢م) .

بعض مظاهر الحضارة

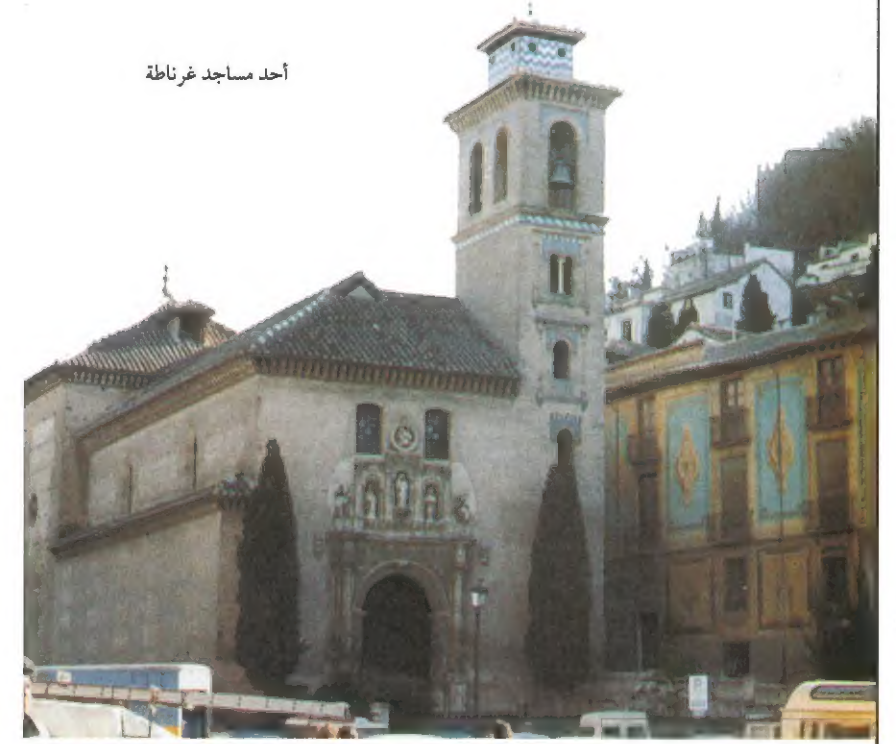
بغرناطة في عصر بني نصر

ازداد عدد السكان في مملكة غرناطة بسبب تدفق المهاجرين إليها من المدن الأخرى وبسبب هجرة المدجنين الذين أفتاهم فقهاؤهم بضرورة مغادرة البلاد التي سقطت في يد النصارى ، فلجأ إليها العلماء والأدباء وعامة الناس ، كذلك وجد البربر الذين جاءوا لمعاونة غرناطة في حروبها ضد المسيحيين ، كما تحدثت بعض المصادر عن عناصر سودانية خارج مألقة ، وعن صوفية وفدوا من

وقد التقت قوات غرناطة والمرينيين وحاربوا قوات قشتالة وليون عند «اسنجه» جنوبي قرطبة سنة (٦٤٧ هـ = ١٢٤٩م) ، ونحس المسلمون حماساً عظيماً ومزقوا قوات قشتالة شر ممزق ، واضطر «ألفونسو العاشر» إلى طلب الصلح ، وحدث لقاء مماتل قرب غرناطة عام (٨١٧ هـ = ١٣١٨م) اتحد فيه المسلمون فحققوا نصراً



أحد مساجد غرناطة



* قصر الحمراء :

يعد قصر الحمراء من أعظم الآثار الأندلسية بما حواه من بدائع الصنع والفن ، وقد كانت الحمراء قلعة متواضعة في القرن الرابع الهجري ، وعندما تولى «باديس بن جبوس» زعيم البربر غرناطة اتخذها قاعدة للملكه ، وأنشأ سوراً ضخماً حول التل الذي تقع عليه ، وبنى في داخله قصبة جعلها مركزاً لحكمه ، وقد تطورت مع الزمن وأصبحت حصن غرناطة المنيع .

ولما دخل «محمد بن الأحمر» غرناطة عام (٦٣٥هـ = ١٢٣٨م) ،

أخذ يبحث عن مكان مناسب تتوفر له القوة والمناعة ، فاستقر به المطاف عند موقع الحمراء في الشمال الشرقي من غرناطة ، وفي هذا المكان المرتفع وضع أساس حصنه الجديد «قصبة الحمراء» ، ولكي يوفر له الماء أمر بعمل سد على نهر «حدرة» شمالي التل شيدت عليه القلعة ، ومنه تؤخذ المياه وترفع إلى الحصن بواسطة السواقي ، وقد باشر السلطان العمل بنفسه واشترك فيه وكافاً المجتهدين ، واتخذ ابن الأحمر من هذا القصر مركزاً للملكه وأنشأ فيه عدداً من الأبراج المنيعه ، وأقام سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة ، وفي عهد «محمد الفقيه» استكمل الحصن والقصر الملكي ، ولما تولى «محمد الثالث» قام ببناء المسجد الجامع بالقصر .

وكان عهد السلطان «يوسف الأول» وولده «محمد الخامس» هو العصر الذهبي لعمليات الإنشاء والتشييد في قصر الحمراء ففي عهد الأول أقيم السور الذي يحيط بالحمراء بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب الشريعة أو العدل وغير ذلك من الأبراج والقصور والحمامات ، وقام الثاني بإصلاح ما بدأه أبوه وإتمامه ، ثم قام بتشييد مجموعة قصر السباع ، وقاعة الملوك أو العدل وغيرها .

بقايا قصر الحمراء «القصبة والبرج»



ساحة السباع بقصر الحمراء

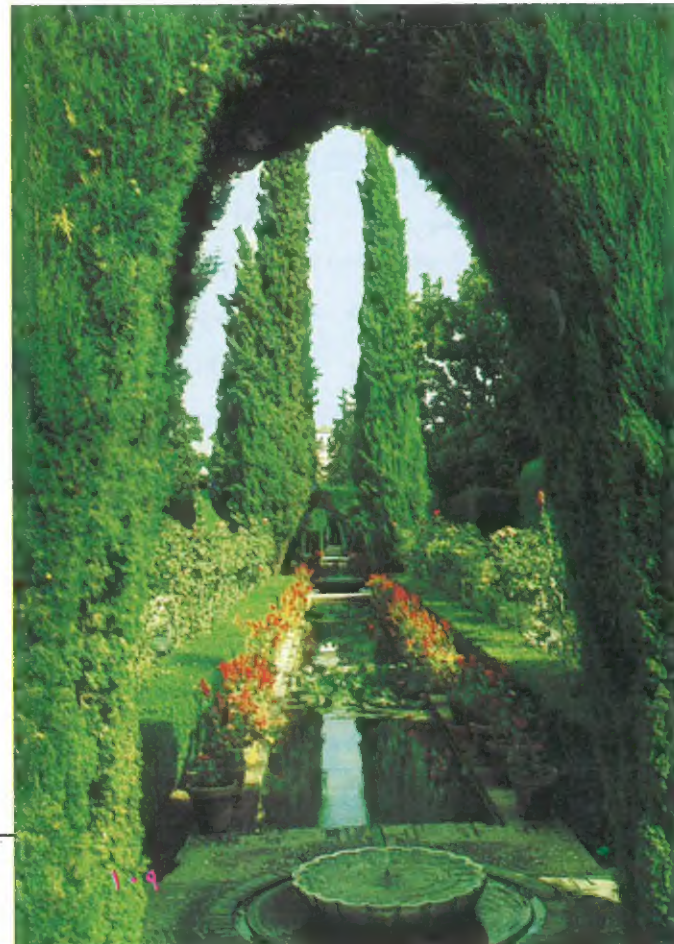


وقد يسأل سائل ، من أين جاء اسم الحمراء؟ قيل إن هذا اسم قلعة الحمراء القديمة التي فوقها بنى ابن الأحمر قصره ، وقيل إن هذا الاسم مرجعه احمرار أبراج قصر غرناطة الشاهقة ، أو إن ذلك يرجع إلى لون الآجر الذي بنيت به الأسوار الخارجية أو إلى لون التربة التي بنيت عليها والتي اكتسبت لونها الأحمر من كثرة أكسيد الحديد بها ولهذا سميت بتل السبيكة .

* قصر جنة العريف :

شيد في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم جدده السلطان أبو الوليد ، ويقع بالقرب من قصر الحمراء ويطل عليه ، وهو في شمال شرقي الهضبة وتظهر من ورائه جبال الثلج ، ويدخل الإنسان إلى هذا القصر من مدخل متواضع يؤدي إلى ساحة فسيحة على جانبها رواقان طويلان ضيقان ، وفي وسط الساحة بركة ماء غرست حولها الرياحين والزهور الفائقة الجمال حتى أصبح هذا القصر المثل المضروب في الظل الممدود والماء المسكوب والتسيم العليل وقد اتخذته ملوك غرناطة متنزهاً للراحة والاستجمام .

جنة العريف



- آنخل جنتال بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي - ترجمة حسين مؤنس - القاهرة - ١٩٥٥ م .
- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد) : الحلة السيرة - تحقيق حسين مؤنس - الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٣ م .
- ابن الأثير (عز الدين) : الكامل في التاريخ - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م .
- أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس - بيروت - ١٩٧٢ م .
- ابن بسم : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق إحسان عباس - بيروت - ١٩٧٨ م .
- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة - بيروت - دار الكتب العلمية .
- ابن حيان (أبو مروان) : المقتبس في أخبار بلد الأندلس - تحقيق عبد الرحمن علي الحجي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م .
- حسين مؤنس : فجر الأندلس - الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة - الطبعة الثانية - ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .
- الحميدى : جذوة المقتبس - مجموعة تراثنا - القاهرة - ١٩٦٦ م .
- ابن الخطيب (لسان الدين محمد) : الإحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م .
- ابن الخطيب (لسان الدين محمد) : أعمال الاعلام فيمن بويق قبل الاحتلال من ملوك الإسلام - تحقيق ليفي بروفنسال - معهد العلوم العليا المغربية - الدار البيضاء - ١٩٣٤ م .
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ ابن خلدون - مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت - ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
- دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا - ترجمة حسن حبشي - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٣ م .
- السلاوي (أحمد بن خالد) : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى - دار الكتاب - الدار البيضاء - ١٩٥٤ م .
- السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس - بيروت - ١٩٧١ م .
- الصفدي (صلاح الدين خليل) : الوافي بالوفيات - دار فرائز شتايز شتوكتارت - ١٩٩٢ م .
- عبد الرحمن علي حجي : التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة - دار الاعتصام - القاهرة - ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م .
- عبد العزيز الأهواني : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري - بحث في مجلة آداب القاهرة .
- ابن عذارى المراكشي (أبو عبد الله محمد) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - تحقيق كولان وبروفنسال - دار الثقافة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م .
- القلقشندي (أحمد بن علي) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م .
- ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس - ترجمة السيد عبد العزيز ومحمد صلاح الدين - القاهرة - ١٩٥٦ م .
- محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م .
- المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب - مصر - ١٣٢٤ هـ .
- المقرئ : نفع الطيب - تحقيق الدكتور إحسان عباس - بيروت - ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م .

* قصر شنيل أو قصر السيد:

يرجع تاريخه إلى زمن الأمير الموحدى أبي إسحاق ابن الخليفة أبي يعقوب يوسف ، وقد اتخذ قصرًا للضيافة في عهد بنى نصر ، ويقع على الضفة اليسرى لنهر «شنيل» وقد أقام سلاطين بنى نصر قصورًا أخرى في العاصمة وغيرها من المدن لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم منها: القصر الذى بناه محمد الفقيه فى ريبض البيازين ، وكان يضم نافورة رخامية وصالة مربعة جميلة مملوءة بالمناظر البديعة ، وبالقرب من هذا القصر منزل يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، وفى حى القصبة القديمة بالبيازين قصر «دار الحرة» وهو عبارة عن صحن محاط بالأروقة تفتح عليها -صالات ولا

يزال يحتفظ بزخارفه الحائطية لليوم، كما توجد أطلال بعض المنازل التى ترجع إلى زمن بنى نصر فى غرناطة وما حولها .

* الناحية العلمية :

أما فى الناحية العلمية ، فقد حافظت الفترة على ما خطه السابقون وأضافوا إليه ، ونجد ثبوتا طويلا بأسماء اللامعين ، فى الإحاطة لابن الخطيب ، وفى نفع الطيب للمقرئ ، كما أنشئت المدارس وتوافرت الاختراعات مثل: المدافع والبنادق التى استعملها المسلمون فى دفاعهم عن غرناطة ، ويحتفظ متحف مدريد الحربى بنماذج منها حتى الآن .

كذلك ازدهرت صناعات عديدة

هـ - المورسكيون :

وقد أبت غالبية المسلمين أن تفرض عليهم عقيدة لم يؤمنوا بها فاصطدموا بالسلطات المسئولة دينية ومدنية ، واستخدمت محاكم التفتيش معهم كل حيلها من اعتقال وتشريد ومصادرة وتحريق كما جوبهت ثوراتهم على الظلم بكل قسوة وعنف ، ولم يفت المسئولين استخدام وسائل التبشير والإغراء ، وظل المسلمون على موقفهم وواصلوا ممارسة شعائرهم الإسلامية فى العلن حينًا وفى السر أحيانًا ، وبلغ الضيق برجال الكنيسة ورجال الحكم مداه ، وبعد مناقشات مستفيضة تقرر طرد المورسكيين من

منها: صناعة السفن، والمنسوجات، وقد انتجت المصانع القماش الموشى بالذهب فى ألمرية ومالقة وأقمشة أخرى فى غرناطة وبسطة ، وتم اتخاذ الفراء من بعض الحيوانات البحرية .

كما عرفت المملكة صناعة الأصباغ والجلود والحلى وغيرها ؛ كذلك اهتم بنو نصر بالزراعة وما يتصل بها من وسائل الري وأنواع المزروعات ، وكانت مدينة غرناطة أجمل مدن العالم بشوارعها وميادينها وحدائقها ومرافقها وكانت تصدر صناعاتها إلى عدد من البلدان بعضها أوربي، وهناك أسماء كثيرة من أعلام الفكر ظهرت فى هذه الفترة منها: ابن البيطار وابن خاتمة وابن الخطيب، وهناك عدد من السلاطين بنى نصر ألفوا كتبًا فى الأدب ، ورعوا العلم ورجاله ومعاهده .

كل إسبانيا ، وتم ذلك بالفعل فى الفترة من (١٦٠٩ - ١٦١٤م) ، حدث ذلك دون مراعاة لمشاعر هذه الشريحة من المجتمع الإسباني ، على الرغم مما كان لها من دور متميز فى خدمة الزراعة والاقتصاد بمختلف بلدان شبه الجزيرة .

وتم بهذا الطرد إنهاء فصل من فصول العلاقات باللغة الأهمية بين الإسلام والنصرانية فى بلاد الأندلس . ولله الأمر من قبل من بعد وإليه المرجع والمآب .

جمع مفردة : «المورسكى» وهى تصغير لكلمة «المورو» والمقصود بها أفراد الشعب المسلم الذى ظل موجودًا بإسبانيا يخضع لحكم الملكين الكاثوليكين بعد سقوط غرناطة فى أيديهما .

وقد نظمت معاهدة التسليم حقوق وواجبات هؤلاء ، لكن بنود هذه المعاهدة سقطت واحدا وراء الآخر ، وأريد لهم أن يكونوا نصارى شاءوا أم أبوا ، وتم فى سبيل ذلك اللجوء إلى كل ألوان الأساليب وأشدّها قسوة وعنفًا مع استخدام الأمانى أحيانًا .



الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الأندلس .	٥	خلافة الحكم بن عبد الرحمن .	٦٢
الفتح الإسلامي للأندلس .	٦	خلافة هشام المؤيد بالله .	٦٥
موسى بن نصير والمشاركة في فتح الأندلس .	١٠	الدولة العامرية .	٦٧
عهد الولاة .	١٣	عبد الملك المظفر بالله .	٧٣
عهد الإمارة الأموية الأندلسية .	١٩	سقوط الخلافة الأندلسية .	٧٦
عبد الرحمن الداخل يحكم الأندلس .	١٩	دولة بني حمود .	٨٠
هشام الأول بن عبد الرحمن .	٢٥	عناصر المجتمع الأندلسي .	٨٢
الحكم الأول بن هشام .	٢٦	المظاهر الحضارية خلال عصرى الإمارة والخلافة .	٨٤
عبد الرحمن الثانى الأوسط .	٢٨	الأندلس بعد سقوط الخلافة .	٩١
المظاهر الحضارية في عهد عبد الرحمن الأوسط .	٣٣	عصر ملوك الطوائف .	٩١
الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط .	٣٥	الأندلس في ظل المرابطين .	٩٤
الأمير المنذر بن محمد .	٤١	الأندلس في ظل الموحدين .	٩٩
الأمير عبد الله بن محمد .	٤٢	دولة بني نصر .	١٠٢
عبد الرحمن الناصر .	٤٦	بعض مظاهر الحضارة بغرناطة في عصر	
إعلان الخلافة الأموية في قرطبة .	٥٤	بني نصر .	١٠٧
		المورسكيون .	١١٠

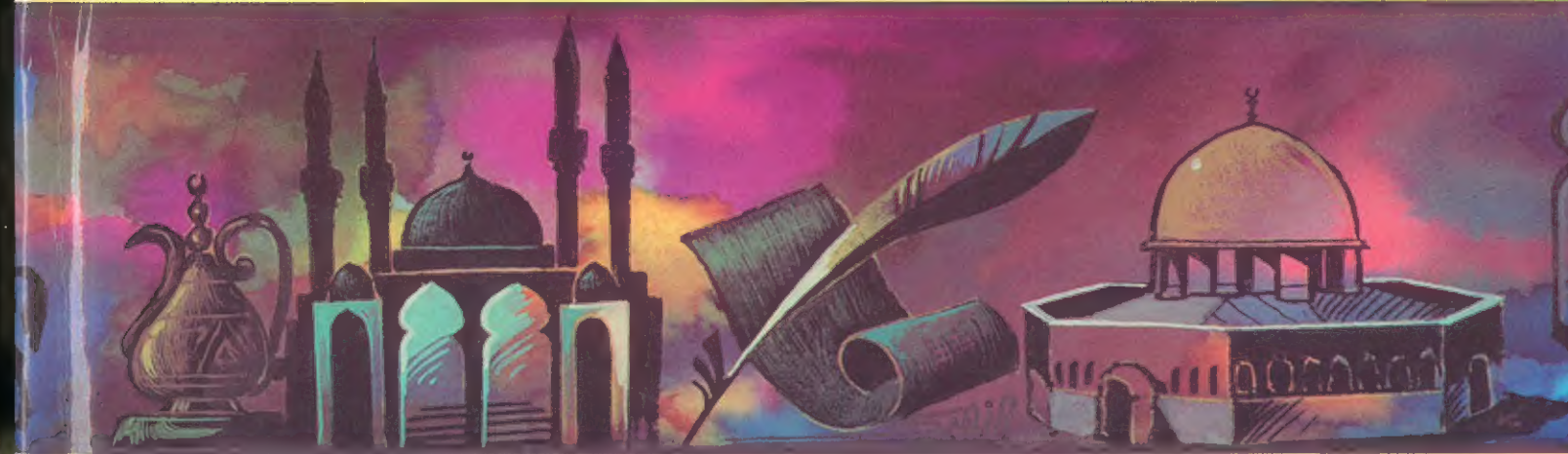
تتناول هذه الموسوعة تاريخ الإسلام والمسلمين بدءاً من بعثة النبي ﷺ حتى إلغاء الخلافة الإسلامية عبر رقعة كبيرة من الأرض امتدت حدودها من الصين واندونيسيا شرقاً إلى الأندلس والمحيط الأطلنطي غرباً ، ومن أواسط آسيا شمالاً إلى المحيط الهندي وأقصى إفريقيا جنوباً .

وقد انتهجت الموسوعة منهج الحياد في عرض الوقائع والأحداث ، دون مبالغة في ذكر الأمجاد والبطولات ، أو تهوين من العيوب والأخطاء .

وإذا كان استخلاص الدروس والعظات والاعتبار بتجارب السابقين أحد أهداف دراسة التاريخ ، فإن ذلك لا يتحقق إلا بالدراسة الموضوعية للمواقف والأحداث .

والأمم الحية هي التي تدرس تاريخها ، وتتعلم من أخطائها قبل أن تباهى بأمجادها أو تفخر بأبطالها .

سفير ٥ شارع جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة - ص . ب : ٤٢٥ الدقي
ت ٣٣٧٩٧٥٢ - ٣٣٥٣٧١١ - ٣٣٥٣٧١٢ - ٣٤٩٤١٣٩ فاكس ٣٤٨٠٢٩٩



أجزاء الموسوعة:

- ٥ - مصر والشام والجزيرة العربية.
- ٦ - المغرب الإسلامي.
- ٧ - المسلمون في الأندلس.
- ٨ - الدولة العثمانية.
- ٩ - المسلمون في إفريقيا جنوب الصحراء.

- ١ - عصر النبوة والخلافة الراشدة.
- ٢ - العصر الأموي.
- ٣ - العصر العباسي في العراق و المشرق.
- ٤ - المشرق الإسلامي بعد العباسيين.